صِبْغَة اللّٰه

الكاتب: محمد عادل عبد الجواد.
تدقيق لغوي: أحمد إبراهيم.
الإخراج الفني: ضياء فريد.
تصميم غلاف: محمد علي.
رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٧٧٦٩
الترقيم الدولي: ٧-٥٢-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.
موبايل : 01126026691 01061813345
01009823984

صِبْغَة اللّٰه

رواية

محمد عادل عبد الجواد

أخي الصغير، صاحب الروح الخفيفة، أردت سؤالك إن كانت الأرواح تكبر سنًّا أم نحن الأحياء وحدنا أصحاب هذه اللعنة؟! ثلاثون عامًا مرت وأنا ما زلت أذكر كأن ما حدث حدث أمس، كان موتك سهلًا، بسيطًا، بلا معاناة، بلا جلبة، لم أبك حينما قال الطبيب لوالدي: «**البقاء لله**» لأني لم أفهمها، لم أبك حينما أخبروني أنك مت، لأنني لم أدرك كنه الموت، ولكني أجهشت بالبكاء فقط حينما أخذوك من جواري، وعلمت أن من يذهب إلى القبر لا يعود... ظل جواري لا جوار له، ظل جواري خاليًا بعدك، أعلم أنك تسمعني، وتراني، فأتمنى لو تقرأ لي.

إليك يا من تسكن القبر.. إليك أخي وائل.

أنا دنيا.. اسمي دنيا! بالرغم من تسميتي باسمها إلا أنها لَمْ تَحْنُ عليَّ، ولم يشفع لي ذلك عندها.. لم أعرف منها غير القليل: في حياتي البائسة السابقة لم أتذوق طعم «الآيس كريم» المُغلف بغُلافهِ الفاخِر، ولا «الشوكولاتة» التي تتراقص عليها نجمات «السينما» بالإعلانات، لم أجرب، ولم أتعلم، ولم أرَ منها سوى الصرخات، عشتُ من السنين تسعًا، ثلاثتها الأخيرة كانت خوفًا.

ساقي.. كُسرَت ولم تُعَالَج لفترة حتى إنها فَسدتْ، وكان لا بد من بترها قبل أن يتمدد ما تلف إلى بقيةِ جسدي، حفاظًا على حياتي.

لا أعرف أين أنا، المكان مظلم، أظنني أرقد بالقبر، لا أعرف.. ولا أعي ما يحدث لي الآن! فقد كنت راقدة منذ قليل في سرير معدني يتحرك بعجلاتٍ على أرضيةٍ من رخام مصقول، وصوت صفير آلي يتعالى بالتناوب مع دقات قصيرة ومستمرة، أنا مُشوشة.. لا أعرف، ولا أعي ما يحدث.

كل ثانية تمر تتضح الصورة، يتسارع الوعي، وتولد الرؤية من الظُلمة، راحة بدأت تتسلل في عروقي، ونشوة سَرتْ من دماغي لا أعرف لها سببًا.. أهو الموت؟!

الآن أصبحت أعي كل ما جرى في حياتي السابقة القصيرة، أنا أفضل حالًا من ذي قبل، لم أعد أشعر بالخوف، نعم.. لم أعد أشعر به، ذلك الشعور الرهيب، وارتعاشة الأوصال، وخفقان القلب كعصفور حبيس يضربُ قفصه، ورفرفة الجفن منتظرًا «طشة» نصل السكين المُستعر على الجلد، يسبقها تسرب سائل دافئ يلون فستاني الممزق الذي لا لون له، أنتم لم تعرفوا الخوف الذي عرفته.

لو رأى هؤلاء الحمقى المطمئنون ما كان في عيني من خوف؛ ما اطمأنوا. هذه أعظم لذة في كوني ميتة.. ميتة! لا أعرف أيضًا إن كنت ميتة أم لا! فلم أجرب الموت من قبل حتى أجزم لك، ولكن هذا الوضع أفضل بكثير.

سأحكي لك من البداية حتى تفهم أو حتى إن لم تفهم فما الفارق؟! أظنني انتهيت بينما كنت تمصمص شفاهك تأثرًا أو متصنعًا التأثر، ولكني سأحكي، هناك رغبة جامحة تدفعني لأن أحكي، لنفسي! نعم سأحكي لنفسي، ولك أيضًا عسى أن ينمو لك ضمير!

الفصل الأول

مُستوحى من أحداث حقيقية

عليك فقط أن تبحث حولك لتجدها

1

الواقف على ناصية الشارع باسمًا وفاتحًا مقلتيه عن آخرهما يترصد فتاة تمُر؛ هو أبي، والفتاة المارة أمامه حاملة فوق أنفها نظارة سميكة تقاوم الابتسام والخجل بطأطأة الرأس إلى الأرض؛ هي أمي.

بخطواتٍ متثاقلة تنتظر أن تطمئن أنه يتبعها، تسارعت خطواتها بعد أن اطمأنت، ومشت تهندم التواء عباءتها الرخيصة بين رجليها، وتخطف أصابعها لتطمئن أنها مستوية عند أسفل ظهرها، فلا شك بأن نظراته تثقبها. مشقة أن تمشي بينما تعرف أن عيون من تحب ترصدك وتتبع تفاصيلك، مشقة عظيمة لا يعرفها سوى من جربها.

وعلى بُعد أمتار، مع تغيير الجانب من الشارع ـباعتباره تمويهًاـ كانت خطوات أبي ببنطاله «الجينز» الواسع وحذائه الأسود مدبب المقدمة.

بعد خمس عشرة دقيقة وصلت أمي بخطواتها المتعجلة إلى موقف عربات الأجرة، التي تنتظر حتى تتعبأ بالأجساد كي تنطلق، ينادي على بابها صبي بصوت جهوري:

ـ طنطا.. طنطا.. طنطا يا آنسة؟

أومأت له برأسها ثم ابتلعتها العربة، جلست بالمقعد قبل الأخير الخالي؛ حيث كان هناك شاب يبدو نائمًا ينزوي في المقعد الأخير، دلف هو الآخر إلى العربة التي ما زالت خالية تقريبًا، عيناه مثبتتان عليها، أرعش حاجبيه، وغمز بعينيه بخفة دم أضحكتها. بينما هَمَّ بالجلوس بالمقعد أمامها، إذ لم ينس أن يرمي لها ابتسامة خفيفة، راسمًا كلمة طائرة من شفتيه بلا صوت فهمتها هي على الفور: «**أحبك**».

ابتسمت بخجل مُفتعل، وسرعان ما أخرسهما وأسكن الابتسامات دخول سيدة إلى العربة وهي توجه تساؤلها لمن يرد:

- **طنطا؟**

فأجابها أبي بنعم.. امتلأت العربة بالأجساد، رائحة العرق.. هيجها الجو الزامت، الهواء وإن وُجد ساخن يلفح، شهر يوليو وناره، أسرعت العربة ككلب مربوط فك وجرى ليعض أحدهم، هتف «الكاسيت» بأصوات متداخلة لا تُفسر مع موسيقى تخترق أذنك مُسببة طنينًا، مع تصاعد مناقشات عن الأجرة كأنها منافسة بين الكاسيت والركاب، أيهما أكثر جلبة، حتى اندفع صوت غليظ ليحسم أمر المنافسة لصالح راكبي العربة:

- **أغلق هذا «الكاسيت» حتى نسمع بعضنا ونستطيع تجميع أجرتك «يا أسطى».**

لم يتبين السائق من الكلمات التي وُجهت إليه سوى كلمة «**أجرتك يا أسطى**»، وهي سواها كانت كفيلة بأن تقنعه بتهدئة هذا الصراع بين الجلبة خلفه وصوت جلبة موسيقاه، فأطفأ «الكاسيت» راضيًا بهذا سببًا، وتساءل أحدهم عن الأجرة فردَ عليه نفس الصوت الغليظ الذي قلد نفسه مسؤولية تجميع أجر العربة:

ـ **ثلاثة جنيهات يا أستاذ.**

وعلى الفور امتدت يد، وقرعت كتفه بورقة فئة العشرين جنيهًا، وعندما تبينها قال مخاطبًا صاحبها:

ـ **ألا يوجد معك فئات أقل؟**

رد صاحب العشرين جنيهًا:

ـ **لا والله، ما معي غيرها.**

ليصمت الرجل بتذمر باحثًا في جيوبه.

ثم يأتي صوت أبي من الخلف:

ـ **إذا سمحت! أعطِ للسائق أجر اثنين من العشرة جنيهات هذه.**

ومد يده بعشرة جنيهات إلى كتف من بالمقعد أمامه، لتعود نفس الأصابع التي التقطت العشرة جنيهات منه بعد قليل وبها أربعة جنيهات ورقية.

ثم ساد سكون وصمت إلا من صوت جلبة «الكاسيت» الذي قد خُفضَ صوته عند مناقشات الأجرة ـ في حضرة المال يخرس كل صاخب ـ حتى اندلع صوت من المقعد خلف السائق:

- **لي بقية خمسة جنيهات «يا أسطى».**

هتفَ السائق بصوت عالٍ:

- **أجرة العربة كاملة معي، ولا يوجد فائض فيها.**

ثم أتبع متسائلًا:

- **ألم يدفع أحدكم أيها السادة؟!**

لا يرد عليه أحد ويسود الصمت، فيعود قائلًا بحنق مُغلظًا من نبرة صوته لعل من أراد التملص من دفع الأجرة أن يراجع موقفه:

- **أأحدكم نائم ونسي أن يدفع يا محترمين؟!**

وأيضًا لم يرد عليه أحد، وعاد السكون على وضعه السابق، فقال متوعدًا:

- **حسنًا! خذ يا سيدي أعد لكل راكب نقوده وسنعرف من الذي لم يدفع.**

وامتدت يده حاملة النقود ليضعها بيد الشخص الذي أعطاها له منذ قليل، والذي كان قد قام بتجميعها من الركاب، ليعيدها بدوره إلى ذويها.

أسفرت هذه العملية عن اكتشاف اثنين فقط لم ترجع لهما نقدية، أحدهما كانت أمي، ليجيب أبي المتسائل أنه قد دفع لاثنين؛ هو وهي، وبقي الآخر هذا الشاب النائم طوال الوقت في المقعد الأخير بأقصى موضع بالعربة، ولم توقظه الجلبة، شاب في العشرينيات من عمره رمى رأسه على ظهر المقعد أمامه، ناداه من تولى التحقيق في أمر ذلك الآثم الذي لم يدفع أجرة العربة:

- **يا أستاذ، الأجرة!**

لم يرد الشاب كأنه لا يسمع، ولم يتحرك، ليندفع صوت السائق الذي يتابع قائلًا:

- **أيقظه من فضلك يا أخي.. أنائم هو في ماء حتى لا يسمع كل هذه الجلبة؟!**

هزه الرجل الذي يشاركه المقعد، فلم يُبد أي تجاوب، هزهُ هزةً أعنف بكتفهِ حتى هوت رأسه عن ظهر المقعد، اضطرب الرجل، واعتدل لمواجهته، رفع رأسه، كان وجهه مُصفرًا، وشفتاه زرقاوتين، أدار كل من بالعربة رأسه مستطلعًا، الاضطراب والقلق يعلو الوجوه، نادى أحدهم السائق أن يقف بالعربة، فهناك سائل أحمر لزج تحت الأقدام، لا يعلم من أين أتى.

أحضر أحدهم زجاجة مياه ورشها على وجهه، دون أي استجابة، توقفت العربة، أمسك أحدهم بيده... لا نبض... عينه... شريان رقبته... لا نبض... يده الأخرى محشورة بين المقعد وبدن العربة، رفعها تمهيدًا لجعله يعتدل من انكفائه، إلا أنه اكتشف أن شريان يده كان مقطوعًا منذ مدة، وأخبأ يده بنزيفها بحشرها بين المقعد وبدن السيارة. تركه الجميع ونزلوا، تمتم أحدهم «**لا حول ولا قوة إلا بالله... قتل نفسه... ومات كافرًا**».

التقط أحدهم محفظته من جيبه معللًا الاستدلال على بياناته؛ حيث وجد بها مبلغًا ماليًّا كبيرًا، عشرات الورقات فئة المئة جنيه، فأخرج بطاقته الشخصية متصنعًا الاطلاع على بياناتها، الاسم:

«سامر قاسم أبو طالب»، ثم نظر حوله بخبث ودار هنا وهناك حتى تحين فرصة ودس المحفظة بجيبه، وفي لحظة كان قد تبخر.

وأمسك آخر بهاتفه المُلقى إلى جواره وقال:

- **لنبحث عن آخر رقم طلبه لعلنا نستدل على أهله ونخبرهم.**

وصوت السائق ينبعث، يتكلم بهاتفه طالبًا الشرطة:

- **النجدة.. شاب قام بالانتحار بسيارتي.**

وكان قد فتح الرجل هاتف الشاب المُنتحر ليجد رسالة مكتوبة وغير مُرسلة وكأنما أراد أن يراها فاتح هاتفه أيًّا من كان: «**أخبروا والداي أنني لن أستطيع العيش دونها**».

اعصُر الثمار عصرا
أضف ملعقتين فقط من السكر
ولا تضع ماء.. فماؤها أغزر وأوفر
صَفِها بمِصفاةٍ وارم الشوائب والعوالق والألياف المُبرحة
قدمها في كأس كريستالي ليرقص لونها
ثم اشرب... واشرب
هذه هي الطريقة
وهذا هو عصير السعادة

من أغاني الطور الثاني

نسائم رقيقة تداعب أوراق الأشجار. وقفا تحت شجرة، مد لها يده للمصافحة، رفعت أصابعها وبالكاد لامست كفه، قبض على أصابعها المتسللة كسمكة بصنارة خرجت لتوها من الماء، ومع إصرار يدها على التحرر، تركها، لتعود مُحاذية عودها المُفصل تحت العباءة.

قال لها «**صباح الخير**»**!** وهل لغير رؤيتها يُتبعُ الصباح بالخير، أخبرها أنه سيأتي يوم الجمعة القادم لخطبتها، تهلل وجهها الأسمر وأضاءت عيناها وفرحت دمعاتها حتى ارتسم قوس قزح على عدسات نظارتها، وبتلقائية عادت الأيادي واشتبكت مرة أخرى، تلامست بقوة هذه المرة، كأنها لن تفلت أبدًا، كأن خَبرهُ السعيد أعطى الشرعية لتلامس الأيدي.

تعانقت النظرات وتعرقت الكفوف، فنبتت الزهور بين كفيهما المتعانقين. وردات حمراء وأخرى زرقاء منقوشة على طرحتها، وعباءتها من قماش القطيفة بها نفس اللونين: الأحمر والأزرق، حتى هذه الألوان زهيت وأزهرت بفرحتها، ثم قالت والكلمات تتلحن بفمها:

- **مع من ستأتي يوم الجمعة؟**

قالتها، بينما تتراقص انعكاسات الزهور على زجاج نظارتها، فقال لها:

- **أنا ووالداي وأخي.**
- **ألن ترسل أمك أولًا لتجلس مع أمي وتخبرها بالأمر؟!**
- **أخبريها أنتِ!**

- **لا أستطيع.**
- **لماذا؟!**
- **ستعرف أمي وأخي أنى أراك، ومن الممكن أن يعنفونني أو يضربونني.**
- **يضربونكِ!**
- **نعم الضرب والتعنيف من طقوس حياتي اليومية.**

قالتها بينما تزيح عينيها عن عينيه، فابتسم بحنو كأنما كان له سابق خبر فقال آملًا:

- **ليريحك الله، ويريحني من اشتياقي. حسنًا سأرسل أمي يوم الخميس إن شاء الله لتمهد للزيارة.. فكم أشتاق إلى يوم أن نكون في بيت واحد!**

وأطال النظر في عينيها اللتينِ أضاءتا فجأة، فوجدَ لسانه يردد دونما أن تمر الكلمات بعقله أولًا «**للأرض قمر واحد فكيف لوجهك قمرين**».

تبسم فوها، وتبسمت الوردات على طرحتها وعباءتها، توقفت نحلة على طرحتها كأنما ظنت أن للورد المرسومِ رحيقًا، وكان الرحيق يأتي منها، من سعادتها، وكأن للسعادة رحيقًا.

ثم ساد الصمت إلا من نظراته الطويلة المتعمقة كأنما هي في حديث طويل، أخجلتها طول نظراته، فكسرتها له وقالت بعدما تبدل وجهها:

- **كيف هانت عليه نفسه أن يقتلها!**

ثم أردفت بينما تنتاب جسدها قشعريرة:

- **الدم تسرب وغمر أرضية العربة، لم أجد نفسي إلا وأنا أصرخ.. وأنت تحاول تهدئتي.**

قال آسفًا:

- **ليغفر الله له خطيئته.**

هزت رأسها مستحسنة كلامه، ثم قالت وهي تنظر إلى اللا شيء:

- **لا بد أن له قصة، كأنه كان يريد الزواج من فتاة ولسبب ما قد رفضها أهله، وتعنتوا في الرفض... فعاقبهما وانتحر.**

شهق عميقًا كمكنسة كهربائية ثم شاركها في النظر نحو اللا شيء وقال:

- **الحب كالملاحة مع ربان أعمى.. أنت وحظك!**

ابتسمت وقالت:

- **ومن يبحر مع ربان أعمى إلا إذا كان مجنونًا.**
- **وهل يحب غير المجانين.. يا حبيبتي.. العقل هو الربان الأعمى، فعند الحب يعمى العقل.**

قالت تبدي استياء متصنعًا يفضحه نظرة باسمة:

- **إذًا ما بال عقلك.. أهو أعمى!**

قال باسمًا معلقًا عينيه في عينيها:

- **عقلي عندك.. فأنت أدرى به مني.**

لم ترد على كلامه هذه المرة، واكتفت بالابتسام، وعاد الصمت فجأة، وعادت عيناه إلى سابق عهدها قبل هذا الحديث.

2

في الصباح، وقفت تشكو بُطء الأيام التي مرت كعجائز متكاسلة، تحادث نفسها:

- أخيرا جاء الجمعة! كأنه كان يمشي في حذائه أولًا كعم أيوب.

رن هاتفها رنة قصيرة بإشعار ورود رسالة، أنار الهاتف عند لمستها له، قرأت الرسالة فقد كانت منه كما توقعت، فهاتفها لا تأتيه الرسائل إلا من شركة الاتصالات تعرض عليها خدماتها غير المرغوبة أو منه:

«منذ رأيتك بالأمس، لم يَعُد قلبي في موضعِه، طار من قفصهِ بصدري، طار إليك.. فأرجوك أن تأتي وتعيديه.. وأعدُك هذه المرة أن أُحكِم عظام صدري عليه، ففي المرة السابقة طار عقلي... ولم يَعُد لي، فأصبح الآن عندك؛ عقلي وقلبي».

ابتسمت، وابتسمت روحها الخفيفة، ثم أرجعت الهاتف إلى موضعه، وعادت ترتب البيت -إذا ما صح تعبير كلمة البيت على هذا المكان- كانت الجدران كثيرة الشروخ تآكلت منابتها، تقشرت طبقة الدهان الوحيدة بأجزاء كثيرة من الجدران، كأنها قشور بيض

أظهرت جسد البيضة من تحتها غير أنها كانت بلون قاتم مسود... لون وساخات قد ثبتها الزمن... وأريكة صغيرة غير مستوية عليها مفرش مهترئ... الأرض تُفترش فوقها حصيرة غير مقتنعة بسبب افتراشها على هذه الأرض لتغطي جسدها المملوء بالنتوء والحُفر.

كانت تحاول جاهدة أن تُبديه في صورة جميلة، ولكن هيهات! فلو أحضرت أعظم خبراء الديكور ومع هذه الإمكانيات التي يقف عندها التواضع شاخصًا، لن تُجدي نفعًا، غير أنها تحاول.

خرج صوت مُعنِف يهتز قائلًا:

- **الإفطار! أين الإفطار؟ إني جائع.**

فردت سمر بسرعة:

- **حاضر.. حاضر.**

ثم خرجت تحمل طبقين معدنيين أثرَ فيهما لون التسخين، وانبعاجات السقوط المتكرر، وضعتهما على الأرض حيث يجلس «**حمادة**» أخوها الذي يصغرها بعامين، إلا أنه يحتفظ بلقب (رجل البيت).

جلس القرفصاء يتثاءب، يرتدي فانلة ثَقبَها عرقهُ الحارق، كان لونها أبيض فيما مضى، وشورت يغطي بالكاد فخذيه النحيفين، سلسلة تلتف حول رقبته أقرب إلى جنزير الدراجة، أخرج صوتًا من قصبته الهوائية يستجمع البصاق، التفت مُخالفًا بوجهه أطباق الطعام، ولفظه بعيدًا، كتلة هلامية مقززة رست على الأرض التي أبت أن تشربها.

خرجت مرة أخرى ومعها طبق وحزمة من الجرجير الذي يتساقط منه بعض قطرات الماء، وخلفها أمها تحمل الخبز بين يديها. كنت أتمنى أن أقول –على طاولة الطعام– ولكن ليس هناك أي طاولة، كانت الأطباق لا تستقر على الحصيرة التي لم تستوِ الأرض لها، تميل الأطباق بانحراف ويتساقط بعض منها عند ملامسة أحدهم لها بلقمة، هتف صوته الجهوري فجأة وقال موجهًا كلامه للأم:

- **سألت عن العريس فقالوا لي إنه ميسور ويتقاضى مرتبًا محترمًا من عمله، بالإضافة إلى الإكراميات التي يجنيها من مساعدة هذا والتودد لذاك.**

وترفع يده لقمة تم تحميلها غصبًا بالفول على غير طاقتها، لتدخل في مدفنها عبر فوهة فمه تلوكها أسنانه المصفرة والمسودة منابتها لترد الأم قائلة:

- **اليوم سيأتون ونرى ما يجري، ليتهم لو أخذوها معهم، فلقد أمرضنا بقاؤها كالبيت الوقف الذي لا يباع ولا يشترى.**

فأكمل حمادة مضيفًا على كلماتها قائلًا:

- **وأتزوج أنا كي نجد واحدة أخرى تعد لنا الإفطار.**

قالها ثم نهض عن الأرض جالسًا على الكنبة، كانا يتحدثان عنها دون الالتفات إليها كأنها غير موجودة، وهي فعلًا كانت غير موجودة في حياتهم، ليس لها رأي في أهم تفصيلة في حياتها:

العريس. كانت كالصخرة على قلب الأم الذي كان شاغلها الأول المال، والثاني هو رجل البيت خالي «حمادة»، الذي كان دائمًا ما يترنح دائرًا حول نفسه.. لسانه ثقيل تُجرُ منه الكلمات جرًّا، مشوش العقل يقلب عينين زائغتين، كل هذا من تأثير الحشيش والخمور والحبوب، كل ما تصل له يده يرميه في حلقه بلا تردد.

شعره ينحسر من ثلث رأسه الأمامي ناذرًا بقرب انحساره الكلي واقتراب الصلع... نحيف إلا أنه ممشوق تنتفض أوردته ويبدي شجاعة وبأسًا لا تتناسبان أبدًا مع جسده.

أشعل آخر سيجارة من علبة سجائره، سحب نفسًا عميقًا متشبعًا بالدخان ثم قبض ملامح وجهه فجأة، ومال قليلًا، تبع ذلك صوت معروف لم يكن صادرًا بالتأكيد من الكنبة، فانفرجت ملامحه بارتياح وانتصار غريب، فأمسكت «سمر» فتحتا أنفها وأغلقتهما بين إصبعيها بينما تمتمت في سرها **«الله يقرفك»**.

في المساء، جلست أمام قطعة من مرآة تم لصقها بالحائط، تلملم وجهها الأسمر المنمق، تتفحص حاجبيها والشعيرات الشاردة، يردد لسانها لحن راقص بصوت خافت:

ـ أُدام مرايتها... عادي تدلع براحتها

وفي الخارج، الشمس خبأت، أكلها ذلك العملاق الأسود، السكون لا يحل أبدًا، صيحات الأطفال التي لا تنتهي وشتائمهم البذيئة لبعضهم التي أقلها أن يطعن أحدهم في شرف أم صاحبه أو أن يقول كلامًا بذيئًا عن أحد أعضائه التي لا يعرف فيما يُستخدم،

وأصوات الدراجات النارية مع موسيقاها، مواء قطط يرتفع في نوبات متقطعة، وكلب ينبح أمام البيت مخبرًا باقتراب زوار، نباحه كنباح صاحبه «حمادة» مع اختلاف النوع، سرعان ما تنتقل الجلبة إلى البيت وترحاب داخل المنزل وأحد الأطفال يصيح مشيرًا لأصحابه «**العريس وصل**».

دلف الضيوف إلى البيت، ليخرس الكلب وينضم إليه كلب آخر، رقدا بجوار بعضهما كأنهما يتناجيان، أو يحكيان أحداث يومهما لبعضهما.

جلس الضيوف وكان لا يزال الترحاب بهم ساريًا. ولم يكن بينهم «سمر»، ولكنها كانت قريبة تسمع ما يقال، لم يكن عليها أن تلقي بأذنها لتتسمع، كان الكلام يصلها وحده سلسًا، لا يفصل بين المتحدثين وبينها غير ستارة سميكة من قماش كالمُستخدم في صنع أغطية السيارات، تحجب الرؤية ولا تحجب الصوت.

قالت الست «نفيسة» مُرحبة بالضيوف:

- **تفضلوا، وكأن البيت تنورت جدرانه وأزهرت أرضه بخطواتكم عليها.**

ردت «زهرة» جدتي لأبي:

- **البيت مُزهر بساكنيه، وأرضه مُثمرة بأصحابه يا أم «حمادة».**

جلس ثلاثتهم على الكنبة يتوسطهم جدي، وعن يمينه أبي، وعن يساره عمي، وجلس مواجهًا لهم خالي «حمادة»، أما جدتي «زهرة» و«نفيسة» فقد جلستا على كرسيين متجاورين، بعث «حمادة» نظرة متفحصة إلى أبي فقابلها بالتفاتة مباغتة قائلًا:

- **كيف حالك أستاذ «حمادة»؟**

رسم على وجهه ابتسامة متكلفة:

- **الحمد لله.. بخير يا أستاذ سعيد.**

ورمى نظرته باتجاه جدي قائلًا:

- **شرفتنا يا حاج محمد.**
- **الشرف لنا يا بني.**

لف رقبته ناحية الستارة التي تفصلهم عن «سمر» مناديًا:

- **الشاي يا سمر.**

ابتسم جدي وقال:

- **لا.. نحن نريد شربات.. جئنا اليوم نطلب يد أختك المصونة «سمر» لابني «سعيد»، وأنتم تعرفونا جيدًا ونحن نعرفكم، كالأهل لبعضنا.**
- **نحن أكثر من أهل، نرسلها إليكم بدون شروط، فبزواجها عندكم تذهب لبيت أهلها كما هو هنا بيت أهلها.**
- **الحمد لله.. إن شاء الله متفقين.. ولكن ما هي طلباتكم؟**

قطعت «نفيسة» الحديث الجانبي الذي نشأ بينها وبين «زهرة» وقالت موجهة كلماتها لجدي «الحاج محمد»:

- **ليس لنا أي طلبات أو اشتراطات يا «حاج محمد».. نقول كما يقول الناس.**
- **تحت أمركم يا حاجة.. شقة الزوجية جاهزة وجاري الاتفاق على غرفة نوم وصالون من «دمياط»، والستائر والسجاد وخلافه.. وأنتم عليكم أدوات المطبخ والأجهزة الكهربائية وكل ما له مقبس كهرباء.**

تبادل حمادة النظرات مع أمه ثم قال:

- **إن شاء الله نجهز أفضل الأجهزة.**
- **الحمد لله متفقون.**
- **إذًا نقرأ الفاتحة.**

رفع الجميع أيديهم يقرؤون الفاتحة، وصوت «الحاج محمد» يطغى، و«حمادة» رافعًا كفيه وعيناه زائغتان يحرك شفتيه ويتمتم: «**الحمد لله ... رب العالمين ...أمممم ...الصراط العظيم.. أممم ... ومن شر ما خلق ...أمممم....أمممم ....آآآآآآمين**».

كان «سعيد» يتلو الفاتحة ويعطي كل حرف فيها حقه كأنه يؤكدها، فاتحة بيته الجديد وحياته الجديدة التي طالما حلم بها، أمامه الستارة تختلج، وخيال سمر خلفها رافعة كفيها تتلو الفاتحة.

3

صوت أنين مكتوم يخرج من الباطن، كلب مُقيد ومُستلقٍ على الأرض، الأربعة أرجل كل اثنتين مربوطتين لبعضهما، والكلب مقيد بإحكام، لُف حول فمه حبل عدة لفات كأنه صاري شراع مركب، يخرج من بطنه أنين مكتوم كطلقات من بندقية بكاتم صوت، المطواة تخط على جسده خطوط حمراء، الرعشة والمحاولات اليائسة للخلاص التي يحالفها الفشل.

«سمر» تُخرجُ رأسها من النافذة فوق رأس «حمادة» الذي يقعد تحت النافذة في الشارع، فتشهق عند رؤيتها المشهد مع لفظ بذيء:

- **ماذا تفعل بالكلب المسكين؟!**

يرد بصوت متقطع ماطًا في بعض حروف كلماته:

- **أأُدبهُ... لقد عمل الخطأ ولا بد من تأديبه، ما لك أنت وما أفعله!**

قالت راجية متأثرة تكاد الدموع أن تنزلق من عينيها:

- **ابتعد به من أمام البيت ولتفعل به ما شئت.. فبطني تقلبت.. و«سعيد» على وصول.**

أتي صوت أمها «نفيسة» من خلفها تقول:

- **ما الأمر يا لعينة؟**
- **«حمادة» يا أمي.. قيد الكلب ويقتطع من لحمه بالمطواة.**
- **دعيه يقطع من لحمه ابن الزانية.. كاد أن يعضني أمس.**
- **يا أمي «سعيد» سيأتي الآن... ولا أريده أن يرى هذا المنظر المقزز.. حتى لا ينفر منا.**

ارتفع صوت نفيسة درجة أعلى مُخبرة أن الكلام يتخطاها الآن وهو موجه إلى «حمادة»:

- **أنا قادمة يا «حمادة» انتظر حتى آخذ بحقي من هذا الكلب قليل الأصل الذي نطعمه ونرعاه وفي النهاية يريد أكلنا.**

سرعان ما خرجت «نفيسة» بخطوات سريعة وبيدها سكين كبيرة توهج نصلها، ترمقها «سمر» بنظرات بائسة يائسة، والكلب المسكين ما زال يئن، تهبط بالنصل المستعر بين رجليه الخلفيتين المقيدتين لبعضهما، تنزل السكين ليختلط صوتها المستعر على الجلد العاري من الفرو وصوت أنين الكلب، دموع فاضت عن جفنيه بينما تقول موجهة الكلام للكلب:

- **لكي تنبح مكشرًا عن أنيابك جيدًا يا ابن النجسة.**

خرجت هذه الكلمات من فمها لا تقل قسوة عن نصل سكينها الحامي.

كانت نفيسة كثيرة الكلام، بل كان لسانها لا يكف ولا يمسك عن سوء وبذاءة، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن أي شخص سولت له نفسه منازلته، فلسانها قادر في كل حالاته أن يصب حممه على من يجترئ عليها حتى ولو كان كلبًا.

ولاح «سعيد» لامعًا مُقبلًا على البيت، رائحة العطر الرخيص ما زالت عالقة على ملابسه التي تشربته، ظل شاخصًا أمام الكلب الذي يُعذب، اقشعر بدنه ولكنه تمالك، فهو يعلم جيدًا أي البيوت قدم إليها يخطب منها، وأي الأهل هم أهل محبوبته، كل ما همه تلك الجوهرة داخل التراب التي تنتظره بالداخل.

مسحت «نفيسة» يدها المشمرة بجلبابها المتسخ مخفية السكين خلف ظهرها ورسمت ابتسامة الترحيب «بسعيد» وهي تقول له:

- **تفضل يا حبيبي.. لا تؤاخذنا.. الكلب أصابه السعار وكاد أن يفتك بي أمس... ادخل... تنتظرك «سمر» بالداخل.**

لملم «حمادة» نفسه فقد كان بطيئًا في تجميع الكلمات وقال له:

- **تفضل بالداخل يا زوج أختي يا حبيبي.. سألحق بك حالًا.**

وقف «سعيد» تحادثه نفسه: «**ماذا يفعل ابن اللئيم بهذا الحيوان المسكين؟! حتمًا سيجد من يقتص له ويذيق ابن الكلاب هذا عذابات السنين، كيف استقر عقله أن يربط هذا المسكين مثل هذه الربطة؟! وكيف سكنَ له الكلب حتى أتم ربطه على هذا النحو؟! لا بد أنه كان يأمنه. يا لها من خيانة أن يأمنك من تخونه حتى ولو كان كلبًا ابن كلب**»!

تقدمَ إلى الباب المفتوح، وهي كانت على الباب راسمة على وجهها ابتسامة عريضة تُفوت منها جمل، وكان أبي هو الجمل الذي فات إلى الداخل محاولًا تناسي ما قد رآه من أمر الكلب الذي يعذبونه عذاب المشركين للمسلمين الأوائل، وسرعان ما نسى تحت ضغط بسمتها ولهفة اللقاء. حتى ارتد إلى مسامعهِ للمرة الأخيرة عويل مكتوم، وخرس الكلب بعدها، ليسمع صوت نباح من نوع آخر، كان صوت «نفيسة» تقول:

- **كأنه مات يا ولد.**

ليرد عليها «حمادة» يمط الكلمات كعادته بلسان ثقيل:

- **في داهية.**
- **خذه ولفه وألقه بعيدًا عند كومة الزبالة التي تتربع عند أول الشارع.**

كان «حمادة» يقوم بفك العُقد الذي عقدها إحكامًا في تقييد الكلب فنهرته أمه قائلة:

- **ماذا تفعل؟! لماذا تفك الحبل؟! ارمه بحبله كما هو.**
- **خسارة الحبل.. سآخذ الحبل أولًا.**
- **انجز يا بني.. الرجل ينفرد بأختك أم سننتظر هنا حتى تصبح حبلى!**

ومالت بجزعها على أذنه خافضة من صوتها:

- **متى سيأتي الجماعة يتسلمون المصلحة التي بالداخل يا ابن الأفعى؟**
- **قريبًا يا ست.. الجماعة قالوا لي بعد يوم أو اثنين ليس أكثر.**
- **والمال حقنا فور الاستلام؟ فهذه البنت قد أخرجت «ميتين أمي» من قبرهم، وأنا على تعليمات الجماعة؛ لا تمتد يدي لها بسوء، ولكن لا أخفي عليك، فلقد فاض كيلي ولم يعد بحوزتي كيل آخر أكيل به، فأنا لا أحب الصغار وما يأتونه من قلة الأدب والرعونة.**

رماها بنظرة تعرفها جيدًا فتابعت كأنها تجيبه قبل أن يتحدث:

- **كممتُ فمها حتى لا يخرج لها صوت، وقيدتُ قدميها ويديها حتى لا تشي حركتها عنها.**

حدجها بنظرة وعاد لانشغاله بفك الحبل من أرجل الكلب، بضع لفات باقية وسيصبح الكلب حرًّا.. حُرًّا في أقرب كومة زبالة، ليفعل ما شاء، كل ما يريده سيفعله، سوى أن ينبح... أن يجري... أن يتنفس ... أن يحيا.

قال الطبيب: ما أعراض مرضك؟
فأشرتُ: أثقال في صدري
وصداع في رأسي
وأنفاس غير منتظمة
ودقات قلب تتعارك
وعينان حمراوتان، وجفنان لا ينغلقان
وأحرف واحدة تتردد على اللسان
وعقل لا يميز، يمين من يسار، ولا تحت من فوق
فرد الطبيب: دواؤك يا بني ليس عندي..
فالطب لم يخترع دواءً للشوق.

وفي داخل البيت جلسا متقاربين على كنبة يفصلهما عن بعضهما صينية نحاسية، استقر عليها كوب زجاجي ارتُشفَ نصفه، بينما رقدت ذرات الشاي في قاعهِ، رفع الكوب وارتشف رشفة صغيرة ثم قال لها مبتسمًا:

- **كل ثانية تمر أفتقدك.. وأفتقد وجهك وصوتك.. اكتشفت أمسِ شيئًا.. كنت قد سجلت مكالمة بيننا بصوتينا على هاتفي، حتى إن هزني الشوق إلى صوتك استرجعتها.. وجدت أن عقلي يتوه في صوتك.. فحينما سألتني عن سعر غرفة النوم التي اشتريناها.. أجبتك أني أحبك. وحينما أعدتِ عليَّ سؤالك.. أجبت بأنني أعشق نبرة صوتك، لأكتشف أن صوتك يظل عالقًا بداخلي.. حينما أسمع صوتك يتوه عقلي.. حتى ردودي المنطقية والتي ولا بد أن تتجانس مع حديثك أفقدها ويبقى صوتك فقط.. أفقدُ تركيزي وأفقدُ سيطرة عقلي على لساني.. وينطق لساني بما يمليه قلبي عليه.**

تبادلا نظرات الحب بعد كلماته وساد صمت قصير، ليندفع من النافذة التي تطل على الشارع صوت غلمان يصيحون في الشارع... تسبُهم «نفيسة» بشتائم بذيئة... بينما أقدامها تخطو إلى البيت، تقلب وجه «سمر» إنكارًا وخجلًا من الشتائم التي قيلت على مسمع من خطيبها، غاصت في حديث مع نفسها شاردة، كأنما تحكي لـ «سعيد» دون أن تحكي، تتكلم بداخلها بلا صوت.

«هذه البذيئة أمي، لطالما لم أكن موجودة في حياتها، لا أذكر إلا شتائمها لي وقسوتها، أذكر نحت أصابعها في وجهي، بصفعات يرتج منه دماغي، كانت تتعمد إخراج إصبعها المزود بخاتم فضي كبير عن اصطفافه بمحاذاة بقية الأصابع حتى يوجع ويترك أثرًا يمتد لأيام لاحقة.. كانت تعاقبني لأي سبب.. كأنما تتلذذ بضربي وتعنيفي.. أتدري يا سعيد يوم سألتني عن الندبة في ظهر كفي وأخبرتك أنها بفعل زيت مغلي وقع وأنا صغيرة! لم يكن زيتًا مغليًّا، بل كان كيًّا بالنار عاقبتني به أمي لأني خرجت لألعب على غير إرادتها. كم شككت بأنها ليست أمي! ولكن لم يكن هناك سبيل لتغيير ما أنا فيه... حتى جئت أنت لخطبتي.. لذا أحببتك حبين.. حبًّا لأن قلبي دق من أجلك فقط، وحبًّا لأنك خلاصي من هذه السيدة وهذا البيت وهذه الحياة الأليمة».

أفاقت «سمر» من حديثها الذي لم يخرج من شفتيها على صوت «نفيسة» مطالبة إياها بالنهوض وإحضار عصير لـ «سعيد» وهو يردد أنه لا يريد شاكرًا إياها.

جلست جدتي «نفيسة» تتربع على الكنبة أمامهما، ترسل إليهما النظرات فأخرستهما جِلستها هذه، بودلت النظرات كأنما هي حديث سري من نوع ما، حتى تساءلت عن سبب سكوتهما فابتسما ولم يجيبا، وقال «سعيد» –وفي حلقه غصة من جلوسها كعاذل يحجب عنه متعة الانفراد بحبيبته–:

ـ سأذهب أنا.. لقد تأخرت وأنا أنام مبكرًا لألحق بعملي صباحًا.

واستأذن منهما، وما نسي أن يرمى «سمر» بنظرة شوق من لا يريد تركها وينصرف، خرجت خلفه تنظر إليه يمشي مبتعدًا في الشارع إلى أن ابتلعته الظلمة، ليفزعها صوت أمها آمرة إياها أن تدخل وتغلق الباب.

سكنت نفيسة إلى فراشها وغابت في نوم عميق، ودلفت «سمر» إلى غرفتها، وخلعت ملابسها وزينتها، وألقت بنفسها على الفراش، وأسلمت نفسها للأحلام هاربة من البيت وساكنيه.

بعد ساعات.. عقربا الساعة تقابلا وجهًا لوجه كأنها رقصة التزاوج، لتشير إلى الثانية عشرة والنصف صباحًا، انتفضت جدتي «نفيسة» مفزوعة من نومها لتجلس مستندة إلى الحائط حتى هدأت أنفاسها، ثم قامت من فراشها وأمسكتْ زجاجة بلاستيكية قد أهلكها إعادة الملء، وألقمت فوهتها بفمها حتى إن شفتيها قد احتوت فوهة الزجاجة، واندفع الماء هابطًا مُحدثًا صوتًا مع كل دُفعة منه تهبط لداخلها، سَمعت خربشة على الباب من الخارج كصوت احتكاك أظافر أو مخالب تخدش الباب الخشبي، اقتربت حتى أصبحت خلف الباب مباشرة ونادت «**من بالخارج**»؟ ولكن لم يأتها أي رد، بينما استمرت هذه الخربشة أقوى عن ذي قبل أو هكذا توهمت أذناها لقربها من مصدر الصوت، حتى إنها أمسكت مقبض الباب

وأدارته لينفتح فجأة لتنظر أمامه، فلم تجد أحدًا، أمعنت النظر يمينًا ويسارًا.. لا أحد! ترامى الشارع طويلًا مشمولًا بصمت ثقيل، إلا من صوت يأتي بين الحين والآخر لعربة أو دراجة نارية تمشي من بعيد وحيدة، ثم يعود السكون والصمت.

تيقنت أنه ما من أحد بالخارج، فدخلت وأغلقت الباب خلفها، وعادت إلى غرفتها متجهة صوب دولاب ضخم استقر كأن خلفه سردابًا يوصل لعالم موحش، أمسكت بمصراعيه وفتحتهما ليظهر خلفهما باب صغير ولجت من خلاله برفق.

لتظهر غرفة صغيرة كأنها ليست من البيت، كأنها بنت غير شرعية لرجل، أربعة جدران ليس بها أي منفذ أو نافذة غير هذا الباب المستقر داخل الدولاب.

وفي منتصفها طفلة صغيرة ملقاة على حصيرة بالية، مكممة الفم، معصوبة العينين، مقيدة اليدين والقدمين، غارقة في نوم عميق بعد إعياء سببه نحيب وخوف شديد، ملابسها راقية ومهندمة، إذا ما استثنينا اتساخها، كانت جميلة ووديعة يظهر عليها رفاهية الحال، انحنت «نفيسة» والتقطت طبقًا من الألمونيوم ازرقت وانبعجت حوافه، تلطخ قاعه ببقايا طعام قد بدأ يفسد، الرائحة كانت مريعة، تبولت الطفلة أكثر من مرة في ملابسها حتى اسودت وتلونت بلون غامق، نظرت إليها نفيسة باشمئزاز وبصقت على الأرض وهي تقول:

- رائحتك مقززة، أخذكِ الله، قريبًا يأخذونكِ، قطعًا يدفع أبوك المعلوم... وإن لم يدفع فالعاقبة عنده.

تركتها على حالها وخرجت كما دخلت، هذه النفيسة التي ليست بنفيسة كم كانت قاسية! قلبها متحجر لا ينبت فيه حتى شجرة البلوط التي تخترق الصخر.

وفي الصباح تذكرت «نفيسة» أمر صوت الخربشة على الباب، فخرجت أمام الباب تتفحصه لتجد وكأن مخالب أو أظافر قوية قد أحدثت خدوشًا طولية في النصف السفلي من الباب، خدوشًا حديثة لم تكن موجودة من قبل.

4

أيام تجري جري اللص من مُطارديهِ، تتكرر الأحداث، والكلمات صارت رتيبة ومُعادة، حتى صوت النباح المُكرر الذي تذكره أذناها جيدًا جاءها ثانية عند الباب، جعلها تتساءل «**ألم يمت هذا الكلب»؟!** أمسَكت مقبض الباب وفتحته وما زال صدى النباح يصدح، ما من شيء ينبح، يمينًا ويسارًا، في الزوايا والأركان، لا شيء ينبح، بلغها اليأس فشرعت بالدخول وإغلاق الباب إلا أن النباح قد أتى متصاعدًا من آخر الشارع، أسرعت تتبين، خيالًا ارتمى على جدار لكلب يجري «**أما زال هذا الكلب حيًّا؟! ألم يرمه حمادة في الزبالة؟! أم أنه قد فقد وعيه فقط وهذا التعيس ظنه ميتًا**»؟ دارتْ هذه التساؤلات بفكرها، وهي تسير بذات الطريق التي سلكته خطوات الكلب لتجد نفسها عند كومة الزبالة الضخمة التي تحتل ذلك البيت المتهدم، ولكنها لا ترى الكلب الذي جرى نابحًا أمامها منذ قليل، لكنها وجدت الكلب القتيل فاغرًا فاه، والذباب يخرج منه، وقد انتفخت وازرقت جثته المُلقاة عند سفح جبل الزبالة هذا، عادت من حيث جاءت، هاتفها «ماركة نوكيا» الذي مُحيت أزراره يلح في الرنين وحيدًا بالداخل، فتسرع خطوتها وتلتقطه من فوق الكنبة وترد:

- **ألو.. ألو.**
- **أين كنت أيتها البائسة؟ أعياني الاتصال بك! أين كنت؟**
- **موجودة... وإن كان هناك ما يتلاعب بذهني في هذا البيت الخرب... ويدعوني إلى الجنون.**
- **جهزي الأمانة، الجماعة سيأتون ليلًا.**
- **وحقنا.. هل دفعوا لك حصتنا؟**
- **منذ متى والدفع أولًا! يأخذونها لذويها ويتسلمون الفدية ونتقاسمها حسب الاتفاق ككل مرة.**
- **كأنك تتعصب عليّ.. اذهب عني فلا صحبتك سلامة ولا سرور يا ابن الأفعى...**

وأحسبها صدقت بوصفها.

دلفت إلى غرفتها وفتحت دولاب الأسرار لتختفي داخله، ليعود صوتها متصلبًا جافًّا بسُباب بذيء متبوع بآهات خافتة مكتومة لطفلة خائفة:

- **انهضي يا بنت الكلاب، لولا ما سُيدفع فيك ولولا التحذيرات لاقتطعت من لحمك جِزلًا، ولكن أكل العيش هو ما ينهاني، سأزيح الكمامة عن فمك والله إن صرختِ أو أحدثتِ صوتًا لأذبحنك.**

تزيح الخرقة التي لفتها حول فم الفتاة الصغيرة، وما إن أزالتها حتى اندفعت صرخات حبيسة من جوف الفتاة، ليرن صداها كاسرًا

سكون الغرفة، فتضربها نفيسة بكفها، معيدة الخرقة على فمها لتكتم صرخاتها، وما إن أطمئنت لسكونها، خرجت متوعدة إلى المطبخ، دقائق وعادت وبيدها سكين المطبخ وقد توهج نصلها، وهمت أن تستقر بها على قدم الفتاة المسكينة التي قد غشي عليها قبل أن تمسها السكين.

بعد ساعات، انسكبت الظلمة من السماء على الأرضِ، وحل الليل رفيق المؤامرات والخيانات وكل الفظائع، وغرقَ الشارع الصغير في صمت وسكون، أول الشارع الذي أضاءهُ مصباح مُعلق على عمود خرساني قديم، طل كرأس إنسان قطعوه وعلقوه تمثيلًا به، أضاء فقط أول الشارع، ليُخرِج لسانه لبقية الشارع الغارق في الظلام، والذي يحوي بيوتًا منها بيت «نفيسة».

مصباحا سيارة ملاكي ماركة «لادا» موديل أواخر التسعينيات أنارا الشارع أمام البيت بنور خافت، السيارة تتسحب ببطء كأنما تمشي على الماء إلى أن رست أمام البيت، ليخرج منها «حمادة» والسائق بعدما أطفئ محرك السيارة، ويبتلعهما البيت بداخله.

وبعد مرور ساعات وعند انتصاف الليل، خرجت «نفيسة» من البيت، ترمي نظراتها على الشارع الفارغ من أي شيء، تتشمم الأصوات حتى تخرس، تترقب الحركات حتى تهدأ، وتتبع الأضواء حتى تأكلها الظلمة، كان الهدوء موصولًا إلا من بعض أصوات لدراجات بخارية تأتي صداها من بعيد.

أشارت لحمادة والسائق بيدها، فخرجا مسرعين حاملين جوالًا يتلوى بين ذراعيهما وضعاه في المقعد الخلفي للسيارة، لتتم العملية بسرعة شديدة حتى إن القطة النائمة بين الجدارين لم تقلق من نومتها، انطلقت السيارة ببطء كسلحفاة لو اعتمدت فقط على أذنيك لن تدرك أنها تركتك.

في صباح اليوم التالي..

رنَ هاتفه بموسيقى صارخة «**كله بالفلوس.. كله بالفلوس**» أمسكه بسرعة ورد بنفس حماسة الصراخ الذي ينفجر من هاتفه:

- **ألو.. أيا صاحبي. (ماطًّا في ياء كلمة صاحبي).**
- **الأمانة مجروحة يا صاحبي وهذا ينتقص من حصتكما.**
- **ما بها؟! أقسم أننا لم نمسسها بسوء.**

اختلجت نفيسة في جلستها، وزاغت عيناها، ورمقها حمادة بنظرة ارتياب ووعيد، ثم أردف قائلًا:

- **ماذا حدث؟ وما الذي ألمَّ بالمصلحة؟**
- **أرسل أبوها رسالة صوتية متوعدًا بملاحقتنا، لأنه وجد بابنته كيًّا بالنار أعلى فخذها وآخر بقدمها وآثار لضربات وندبات في صدرها، وكان قد شدد أنه سيدفع كل ما نريده ولا يمس ابنته أي أذى.**

- **وكيف أرسل أبوها هذه الرسالة، أما زلت تستخدم هاتف المساومة؟!**
- **كان به رصيد كبير قلت أُنهيه اليوم قبل أن أتلفه.**
- **ستخرب بيوتنا.. ما هذا العَته! أحرق هذا الهاتف أحرقك الله، ستأتي المصائب إلينا، فلو خربت الهاتف ككل مرة، ما وصل إليك أبوها.**
- **هذا ليس من شأنك... شأنك هو الاتفاق بيننا وهو ألا يمسسها سوء ولا تتأذى، وأنت وأمك قد خالفتما الاتفاق.**
- **من الجائز أن أمي قد اشتدت عليها قليلًا حتى لا تصرخ أو تهرب.**
- **الاتفاق اتفاق ... وأنتما خالفتماه.**

علقت «نفيسة» على ما قد وصل فهمها مما يُبديه «حمادة» من ردود:

- **قل له إننا لم نخالف الاتفاق في شيء، ولكن أحيانًا نصبح مُجبرين على أفعال تقتضيها ظروف الموقف، وهذا شأننا نحن، وشأني أنا وعملي، طالما نحافظ على الأمانة.**

رد الطرف الثاني من المكالمة وكأنه سمع كلماتها:

- **قل للمثقوبة بجدارها التي جلبتك للدنيا ترهقنا غباوتك، إن هذا الخطأ سيكلفكما خمسة آلاف جنيه**

تأديبًا؛ لِما قد يجره علينا من مشاكل نتيجة تهديد هذا الرجل وما فعلتماه بابنته.

وأغلق الاتصال على الفور، رمى «حمادة» الهاتف على الكنبة في حنق، ونفث غضبًا من منخاريه وتضخم صوته المُطعم بالسُباب والبذاءة:

- **أنت أيتها المرأة النجسة، والله لن أعطيك مليمًا من هذه المصلحة يا بنت اللئيمة.**

برقت عينا «نفيسة»، وانفتح فمها حتى اتضح بلعومها، مؤكدًا على قُبح وجهها، وارتفع صوتها صارخة في «حمادة»:

- **أتتركهم يأكلون حقنا يا عار الرجال؟! لولاي ما دخلت جيوبهم كل هذه الأموال، ولولا حذري واحتياطاتي لكشف أمركم جميعًا، والله إن لم آخذ حقي كاملًا لأهدمها عليهم، أيها النيئ الطري، وكأني أنجبت امرأة أخرى تذهب عني ليُفعل بها وتحبل.**
- **«ديكك»! ألم يتعبه الصياح منذ الفجر! اخفضي صوتك فضحك الله، عليك اللعنة يا ابنة العاهر.**
- **أنا يا ربيب القذارة يا شمام! تسبني أنا!**

كانت أصواتهما تنذر أنه لن يمر اليوم على خير، لا بد أن تَحمَّر الأرض بدماء أحدهما، إلا أنه بعد أقل من ساعة، جلست «نفيسة» لجوار «حمادة» على الكنبة بينما هو ينفث دخان سيجارته المحشوة بالحشيش والملفوفة يدويًّا ويتضاحكان على نكتة بذيئة قد قالها. يا لهذه العقول الخربة!

5

كان بيت أبي أكثر رحابة ويسر، كان مكونًا من طابقين، الطابق الأول يعيش فيه جدي وجدتي وأبي الذي لم يكن قد تزوج بعد، والطابق الثاني يعيش فيه عمي «سمير» وزوجته وابنه «هيثم» الذي كان على أعتاب سنه التاسعة.

زوجة عمي كان فكرها حادًّا وطبعها حادًّا، جلبت على العناد، توسوس كثيرًا لعمي ليمشي في طوعها وقد كان يفعل، كان طريًّا ولينًا كعجينة تشكلها حسب ما تقتضيه أهواؤها والظروف التي كانت تقررها هي، في بداية زواجهما كانت «ثريا» زوجة عمي تعيش وتعد الطعام وتخدم البيت كله، ولا تصعد إلى شقتها في الطابق الثاني إلا عند النوم فقط، وكان هذا هو العرف السائد ببلدتنا، إلا أن هذا لم يكن ما تطمح إليه، تريد أن تحكم بيتها لا يشاركها الحكم أحد، حاكمة لا محكومة تخدم، آمرة، ناهية، جازمة، حاسمة، نافية.

إن أي شخص آخر باستثناء زوجها يجد كلماتها تقف في حلقه، غصة في الحلق لن يبتلعها حتى ولو حاول، أما عمي فقد كانت كلماتها عليه كالسحر كما كانت تقول جدتي «**سحراله في المية اللي بيشربها**». دائمًا هي على صواب، لطالما كانت مُبتلاة

باستكبار شأنها على عمي، نفسها تحادثها أنها كانت تستحق أفضل من هذه حياة وأفضل من هذا زوجًا، تحادثها نفسها باستعلاء وكبر.

«**أنا الجميلة الفاتنة، أغرم بي الشباب وهاموا وحاموا حولي يتوددون لي، تقدم إلى خطبتي الكثير والكثير، طبيب وطيار وأستاذ جامعي وابن دوق كامبريدج وابن سلطان بروناي، إلا أنه أمر أبي وتعنته جعلني أخاف أن يمر العمر وفرصي تتقلص، فأهداني لسمير الموظف الغلبان الذي بغلبه قد أحط من شأني، أنا من كانوا يتحاكون بملابسي وأناقتي غير المعهودة على بنات البلدة، ينتهي بي المطاف إلى هذا البيت! وهذا الزوج وهذه الحياة! ولكنه النصيب، وما عاد لهذه الجريمة في حقي من تصحيح، غير أن أعيش حياتي على طريقتي وآخذ ما لي وما أستحقه فلست خادمة لأحد، أنا كاملة السيادة على بيتي ومن فيه**».

كان جداي طيبين، لا يُعلِقان على أكلها إلا بالطيب حتى لو كان سيئًا، كانا يحبان ابنهما كثيرًا ويعلمان كم كان يحبها، لذا آثرت جدتي ألا تخوض منافسة ضدها يمكن أن تخسرها، وهذه الخسارة قد لا يتحملها قلبها الضعيف.

لذا كانت تتقبل منها أي شيء، زلاتها وفي بعض الأحيان قلة أدبها لسوء منبتها، فقد كانت من بيئة أحط وأدنى منهم أخلاقيًّا لكنه الحب والأقدار.

جدتي لم تكن تقوى على الحركة، وبالكاد تحملها قدماها، آلام المفاصل وخشونتها التي أدت إلى تآكل بعضها كما أخبرهم الطبيب في آخر زيارة، وكانت «ثريا» تضجر بخدمة جدي وجدتي وإن لم تعلن ذلك صراحة، إلا أنها كانت تتحين أي فرصة لإظهار ذلك لزوجها، دون أن تبدي كلامًا صريحًا بما في نفسها لعلمها أنها قد تخسر، فهي تنتظر أن تأتي الفرصة السانحة التي لم تكن تعطيها لها جدتي هذه السيدة العجوز الطيبة التي لا تريد من دنياها سوى الستر وراحة أولادها ورضا زوجها حتى الممات. الموت الذي بدأ يشمر عن ساعديه استعدادًا لقطف العمر.

اليوم هو الزفاف، زفاف أبي وأمي، الشارع يتلألأ بمصابيح ملونة تضيء وتطفئ، والعروسان في أجمل صورة: أمي.. العروس الجميلة ترتدي فستانًا أبيض طويلًا منقوشًا عليه عدة دوائر لامعة، بيديها قفاز أبيض لا يمت لبياض الفستان، فقد جاءت به بعده حتى تخفي ندب الكي على يدها.

أبي.. العريس، البذلة السوداء ورابطة العنق الشاهق بياضها قد أعطته وجاهة، كأنه الفتى الأول في أحد أفلام الخمسينات، على جانبيهما كانوا يتمركزون الأهل والأقارب لامعين، يُنبئ حالهم بأنهم أصحاب العرس وأهل العروسين، يحيط بالجميع رجال يرتدون قمصان وردية بيدهم الدفوف يتوسطهم ـ أمام العروسان ـ رجل يحمل رقًا يتعالى صوته محاولًا تلحينه وتجميله.

بسم الله الرحمن الرحيم هنبدأ الليلة.. عَريسنا الزين كحيل العين

ليخرج «حمادة» حاملًا سيفًا كالذي كان بيد «أبو جهل» في «فيلم فجر الإسلام»، اتسعت الدائرة من حوله لتفادي أي خطأ قد يأتي به السيف، ظل يترنح مُحركًا السيف حركات سريعة يمينًا ويسارًا... ينزل على ركبتيه تارة وينتفض قافزًا بسيفه لأعلى تارة أخرى، وسرعان ما انضم إليه من هم على شاكلته، كانت هذه رقصته وواجبه نحو زفاف أخته.

انقضي الزفاف على خير، الجميع كان سعيدًا باستثناء «ثريا» زوجة عمي التي كانت تبتسم وما بداخلها لا يبتسم.

بعد مرور ست سنوات.

وقفتُ بالشُرفة أشاهد الفتياتِ وهن أتيات من المدرسة بزيهن المُوحد الذي كان مدهشًا وخياليًّا بالنسبة لي.

يحملن حقائبهن الملونة على ظهورهن، في منظر طالما راق لي، وأشعلني بالحماسة وترقب يوم أن أصبح مثلهن. جريت إلى أمي وسألتها عن المدرسة ومتى يحين وقت التحاقي بها، حتى إنني بكيت حينما أخبرتني أن عليَّ الانتظار عامًا آخر، ولن أذهب إليها إلا بعد انقضائه، فأخذتني جدتي وقدمت لي حلوى وأجلستني على فخذها تهدهدني كما تُهدهدُ الصغار الرُضع.

كان الجو مُفعمًا بالمودة، تتطاير شرارات الحب في الجلسة التي تشكلت كحلقة من حلقات دروس المساجد التي أكلها الزمن، جدي ومن حوله جدتي وأبي وأمي، وكنت أنا أجلس في حِجر جدتي «زهرة»، التي كانت تطعمني حلوى صنعتها لي خصيصًا.

تَحَدّث أبي عن ضيق الحال وعن وظيفته التي تعود عليه بمال زهيد لا يغني ولا يسمن من جوع، وغيره يكتنزون المال والمناصب والثروات التي لا يستحقونها في نظره، وهو من يستأهل وظيفة أفضل، ومالًا أوفر، وحظًّا أوسع من الضيق الذي يتلبسه، فقال له جدي وكنت أستمع إلى الكلمات دونما أفهمها، فكيف بصغيرة مثلي أن تفهم كلمات الكبار، إلا أنني أفهمها الآن، قال لأبي ناصحًا:

- **يا بني هناك من يحلم بالقصور والثراء، وهناك من يحلم بالسلطة والنفوذ، وآخرون يحلمون أن يعيشوا فقط، الحمد لله.. نعمة الله، فاحمده حتى تبقى نعمته.**

فرد أبي متصنعًا الرضا بتأفف:

- **الحمد لله يا أبي على كل حال.**

ابتسم جدي وقال:

- **أتعرف يا بني حينما كنت صغيرًا، كانت المدرسة همًّا وثقلًا على قلبي، وكنت كغيري من الأطفال لا يشغلني سوى اللهو واللعب، ولم يكن ثمة أحد يقسو عليَّ من أجل مصلحتي، وفشلت عدة سنوات**

متتاليات إلى أن يأسَ مني أبي فأخرجني وألحقني بالعمل، وكنت سعيدًا جدًّا وقتها بهذا القرار، وذهبت إلى العمل بحماسة، وكنت أتعجل العُمر وأستعجله، أريد أن أصبح رجلًا، فدخنت السجائر، وفعلت كل ما يجعلني معدودًا من الرجال، وجرت الأيام وكبرت بسرعة، حتى إني خفت، فالعمر كان يجري كحصان رابح في سباق، وفجأة كبرت ووجدت نفسي أتمنى لو يتراجع حصان العمر ويخسر سباقه وأعود صغيرًا؛ حيث الطفولة التي لا يُثقلها فِكر. زملائي تخرجوا من الكليات، منهم من أصبح له شأن، وتمر الأيام وأصبحت رئيس عمال الشركة وزميلي من المدرسة صار كبير مهندسي الشركة، شعرت بحجم خسارتي وحجم الفرصة التي فوتها على نفسي، ولكن بعد فوات الأوان. كنت أنت ما زلت صغيرًا، وكان همي أن أجعلك تتعلم وتصبح بالتأكيد أفضل مني، ولكني كنت أريدك أفضل منه؛ كبير مهندسي الشركة، وزميلي القديم، أدخلتك المدرسة ولم أدخر جهدًا أن أجعلك الأفضل، ولكن بحدود إمكاناتي التي فرضها عليَّ خطأي القديم، وكبرت أنت وأنهيت تعليمك في «كلية الآداب» ولم تجد عملًا، وعندما وجدته؛ كان فرد أمن في أحد المحلات الكبيرة، وأصبح ابن

زميلي القديم مهندسًا في شركة أكبر، غلطتي يا ولدي قد تمتد لتلحق بأجيال قادمة... تقاعس بسيط أو تظنه بسيطًا وقتها، يمكن أن يغير في مستقبل أولادك لأجيال لاحقة.

كان أبي مستمعًا جيدًا ولم ينس أن يُطمئن جدي بأنه فعل ما بوسعه، وأنه سيظل مدينًا لعطاياه طيلة حياته، وكلام آخر عن القدر وتوزيع الأرزاق... كانت للمحبة رائحة، السعادة كانت تنطق من العيون.

بعد مرور شهور قليلة اشتد تكالب الأمراض على جدي، جلست جدتي إلى جواره تبكي وتدعو الله أن يعافيه، بينما دخل أبي بالطبيب الذي عرف البيت من كثرة تردده عليه أعطاه إبرة في ذراعه، وتفحص عينيه المقفلتين، ثم انزوى إلى أبي بعيدًا عن مسامع جدتي قائلًا:

- **يجب أن يُنقل إلى المستشفى حالًا الحالة خطرة جدًّا، اطلب له الإسعاف.**

دمعت عينا أبي وهو مُرابط يمسح دمعه بكم قميصه حتى لا تلحظها جدتي ثم قال لها:

- **جهزي أبي ستحضر الإسعاف لأخذه للمستشفى، الطبيب يقول إن المستشفى أفضل وسنجري له فحوصًا وتحاليل هناك.**

جاءت سيارة الإسعاف بجلبتها وشؤمها وفألها السيئ، أصرت جدتي ألا تفارق جدي، جلست بجواره ممسكة يده وتبكي وتتمتم بآيات من القرآن الكريم.

استقر جدي على فراشه بالمستشفى، وضعوه على أجهزة تنفس وأوصلوه بأسلاك كأنها نبتت من جسده، ظل الوقت لا يمر وجلس أبي وعمي إلى جواره حتى حضر طبيب كبير بشعر أبيض وجاكت أبيض ناصع البياض، أخبرهم أن الحالة مستقرة وعلى أحدهما أن يذهب للحسابات ليدفع مبلغًا مقدمًا تحت حساب إقامة المستشفى، والتي قد تستمر أكثر من أسبوع.

لم يقتنع أبي بما قاله الطبيب بشأن حالة جدي المستقرة، وتصادف أن وجد طبيبًا آخر كان زميله من الدراسة الثانوية، أخبره عن حالة جدي المتدهورة وعن طمأنة الطبيب ذي الشعر الأبيض له، فحدق الطبيب في السقف كأنما يفكر أو يريد أن يقول شيئًا ثم هز رأسه في تردد وضم شفتيه حاسمًا أمره وقال:

- **تعال معي لأرى والدك قبل أن تذهب للحسابات.**

أمسك الطبيب بالتقارير والتحاليل والأشعة، وفحص جدي جيدًا، ثم أمسك بذراع أبي وسحبه معه إلى الخارج ليتبعهما عمي وتتبعهم نظرات جدتي المتسائلة:

- **خذ أبيك وأخرج يا «سعيد» الحالة متدهورة والمرض قد تفشى، وما هي إلا مسألة وقت حتى يسترد الله عطيته فلا تتعبه، ستظل هذه الأجهزة مُعلقة في**

تِعداد كماكينة محطة البنزين، فهي مسألة تجارية بحتة، وليظل هذا الحديث بيني وبينك ولا يخرج لأحد أبدًا.

ثم سمع صوت جدتي تناديه بلهفة قاطعًا انشغال عقله بما قد قيل، دخلوا جميعًا ليجدوا جدي وكأنه يحارب لخروج بضع كلمات من حلقه على دُفعات متقطعة:

- **أخرجوني من هنا... أريد... أن أذهب إلى... بيتي... أريد أن أموت... على فراشي.**

وكانت دموعه تخرج من عينيه مع أنفاس متلهفة ترجو، نظر الطبيب لأبي وأشار بطرف عينه إلى جدي كأنما يقول له «**أنظر ماذا كنت أقول لك منذ قليل**».

انصاع أبي وعمي لتصميم جدي وأخرجاه بعدما وقعا على خطاب بتحملهما المسؤولية، ليست المسؤولية فقط، ولكن المسؤولية كاملة!

ليعودا بجدي إلى البيت، وما هي إلا سويعات قليلة ومات جدي في فِراشه قابضًا على يد جدتي التي لم تبرح موضعها قربه.

بعد مرور أسابيع، والتي لم تخفف حزن جدتي حتى إنها ما عادت تأكل أو تشرب إلا بعد إلحاح من أبي وأمي أو تحت ضغط بكائي المستمر، كأنما زهدت الدنيا بعد رحيله وتريد الرحيل إليه.

كنت دائمة الجلوس في حِجر جدتي، وهي كانت حنونة عليّ وتحبني وترعاني أكثر حتى من أمي، ولكن بعد موت جدي أصبح البيت قاتمًا لا لون له، أصبحت الحياة غير كاملة كنا بدون جدي نعيش نصف حياة، أما جدتي فأظنها لم تكن تعيش، فقدت حياتها عندما فقدته. وزادت أحزانها أكثر بعدما انفرد عمي «سمير» وزوجته وابنهما بشقتهم، وأصبح نادرًا ما يمر على البيت الأرضي الذي يقطنه والداي وجدتي المسكينة.

أطعمَتهُ البرتقالة ونام على كتفي
والبعوضة تزنُ وتزنُ في أذني
هدهدته قليلًا حتى نام على كتفي
والبعوضة تزنُ وتزنُ في أذني
قبلتهُ بجبينهِ حتى نام على كتفي
والبعوضة تزنُ وتزنُ في أذني
وقَفتْ البعوضة تمد خرطومها في رقبتهِ
فأمسكتُ السكين وطعنتها بقوة
الدم كثير وكثير...
أكثر من أن يكون دم بعوضة

من أغاني الطور الأول

عاد عمي «سمير» من عمله وأسلمَ نفسه على المقعد، وأسند رأسه إلى يديه، وسأل «ثريا» عن «هيثم» أنام أم لم يزل صاحيًا؟ فأجابته بابتسامة من زاوية الفم لها دلالة؛ بأنه يأكل أرزًا بلبن مع الملائكة منذ ساعات، ورمت بنفسها بجواره فاردة ذراعها البض على كتفه، وقالت له وأصابعها تتخلل شعره:

- **أيستمر بك الحال على هذا النحو؟ إنك تُهلك نفسك في هذا العمل الذي بالكاد يكفينا.**
- **وماذا أفعل! الالتزامات تثقل كاهلي، ولا بد من العمل فترتين حتى نضمن مستقبلًا أفضل لنا ولابننا.**
- **أنت تتعب وتهلك صحتك وغيرك يأخذ مالًا بغير تعب، أخوك السافل يرتع في معاش أبيك ويستأثر به لنفسه ولزوجته وابنته، ويعمل فترة واحدة ويأتي إلى البيت ليضيق علينا حركتنا.**

لم يرد عليها كأنه لم يسمع كلامها الأخير، بينما هي تسحب أصابعها من شعره وترسو بذراعها على الكنبة وتُتهته كأنما القادم من الكلام عن أمر خطير:

- **لم أكن أريد أن أقول لك شيئًا من هذا ولكن طفح الكيل، ولم أعد أتحمل ما يفعله أخوك كلما رآني.**

انتفضت الرأس المستسلمة إلى الراحة كأنما لدغها ثعبان، واتسعت عيناه بعدما كادتا أن تغلقا وتغرقا بغفوة قصيرة:

- **ماذا حدث؟!**

- **لا أريد أن أفتعل المشكلات، ولكن السكوت عن الأمر جعله يتجرأ أكثر.**

بدأ دخان يتصاعد من أنفه غضبًا:

- **ما الأمر؟ انطقي!**

قالت بعدما أعارها الشيطان لسانه وعينيه:

- **منذ مدة وأخوك يحاول محادثتي وحدنا، وأنا أغلق أبواب الحديث بلطف، ويتحين الفرص ويتصيد الأوقات متغزلًا بكلمات خارجة، حتى صارت نظراته ترتشق في جسدي متفحصًا مغرمًا، ولهذا قلت لك أن نعيش بشقتنا ولا نجتمع بهم بالطابق الأرضي، ولكنه أصبح يتجرأ أكثر حتى إنه أمسك بذراعي أمس وأنا على سلم البيت أودع «هيثم» لمدرسته وجذبني وكاد أن....**

همَ منتصبًا غاضبًا تتقافز عفاريته أمامه، يتجه إلى باب الشقة غير آبه لنداءات «ثريا» وتوسلاتها غير الصادقة.

نزل السلم الذي يحتوي على عشرات الدرجات بعدة قفزات قليلة، ضرب الباب بكلتا قبضتيه حينًا، وبركبته حينًا وهو يصرخ باسم أخيه مُضيفًا إليه اللعنات.

- **افتح الباب يا ابن الكلب يا أنجس الأنجاس.**

وبمجرد أن فُتح الباب حتى أمسك بتلابيبه وأخذ يصفعه ويضربه، بينما يسبه لسانه بأقذع الشتائم، وأبي لم يقف مكتوف

اليدين وهو يُصفع ويُضرب أمام زوجته وابنته، كال له عدة ضربات في بطنه، أمي ألقت بجسدها لتحجز بينهما فدفعها عمي بقوة حتى ارتطمت بجدتي «زهرة» التي كانت تتعكز لتصل إليهما، وقعت أمي ومن تحتها جدتي فاقدة الوعي، بينما اصطدم رأسها بالحائط فانطفأ النور في عينيها على الفور وأُغشي عليها، بينما الآخران ما زالا يتصارعان، حتى تجمع الجيران وفصلوهما عن بعضهما وهدأ الوضع قليلًا بعدما سحبوا عمي إلى شقته متوعدًا.

لم تهدأ «ثريا» بما حدث، ولم ينطفئ لهيب حقدها بما حدث بين زوجها وأخيه، وأشار عليها شيطانها بأن تضرب بينما الحديد ما زال ساخنًا، فهذه فرصة قد لا تتكرر، ولتنهي هذه المسألة إلى الأبد.

خرجت مرتدية عباءتها التحتية والمخصصة للبيت ورمت على رأسها خمارها، ومشت مُسرعة إلي بيت قديم خَرب خلف قسم الشرطة، انزوت بنفسها خلف جدار تهدم نصفه وأخرجت سكينًا صغيرة وقامت بتمزيق خمارها وخربشت بأظافرها أجزاء أعلى صدرها، وخطت بنصل السكين كتفها ليتجلى لحم كتفها أبيض بضًّا وإن خضبته حُمرة الدم، وطعنت جلبابها لتنفذ الطعنة برفق مخترقة جلدة بطنها ليلوثه دم أحمر داكن.

أسرعت باكية إلى قسم الشرطة، وأمام الضابط بكت واتهمت أبي بمحاولة اغتصابها والتحرش بها والاعتداء عليها بسكين لمقاومتها إياه أثناء غياب زوجها، وعندما عاد زوجها ورآها بهذا الشكل ذهب لينهر أخاه ويؤدبه، فما كان منه إلا أن ضربه مُكسرًا

عظامه، كان الضابط متعاطفًا معها جدًّا، فقد كانت تقوم بالدور كما لو قامت به «أمينة رزق» في زمانها.

تم القبض على أبي وزج بالسجن لستة أشهر، كان يبكي بأنه لم يفعل شيئًا، مرت الشهور ببطء في السجن، عانى أبي ذو العود الأخضر الطري ويلات السجن، ومُسحت بكرامته أرضية المراحيض وتبول عليه أقسى المسجونين وصفعه آخرون، مرت الشهور بطيئة علينا وعليه، ليخرج ليس كما دخل.

تحطمت أبراج حماماته البيضاء، وتلوثت نفسه وتغيرت صبغتها واسود بياضها، أصبح دائم الجلوس وحده، يسبني ويدفعني إذا ما اقتربت منه ليلاعبني كعادته قبل سجنه، حتى أمي إن اقتربت منه تنتفض عروقه، وتتسع عينيه، ويدفعها بيديه بعيدًا عنه، ولا يردعه خوف على إيذائها. تبدلت أحواله وكأنه ليس هو أبي الذي أعرفه.

حتى جاء يوم وخرج ولم يتكلم مع أحد، ولم يجب على تساؤل أمي «**أين يذهب**»؟ فقط ضرب الباب خلفه ومضى، كان أذان العشاء يملأ الآفاق، ظل يمشي لا يعلم وجهته أو إلى أين يذهب حتى شعر بامتلاء مثانته ووجوب إفراغها في دورة المياه، اتجه إلى دورة مياه المسجد الذي كان على بعد أمتار منه، وهَمَّ أن يُسرع إلى المراحيض، ليجد أمامه ابن أخيه «**هيثم**»، نظر الفتى إلى عمه قائلًا:

ـ **أخرجت من السجن يا ابن الأوساخ؟!**

قالها وهو يبصق في وجهه.

- **أتبصق عليَّ يا ابن الكلب!**

وأمسكه من رقبته بكلتا يديه، ورفعه لأعلي وطرحه أرضًا، ظل لسان الفتى يسبُ عمه بينما يسعل، فاستشاط غضبًا على غضبه وأمسكه من رقبته مرة ثانية ورفعه حاملًا إياه من رقبته ضاغطًا عليها بكل قوته حتى فارقت قدماه الأرض، بينما تحشرج صوت الفتي وانتفض الدم في وجهه، ثم دفعه إلى الأرض ليرتطم رأسه بالأرض، فجحظت عينيه، وسال اللعاب من فمه وما عاد يتحرك.

كان مكان الوضوء خاليًا والمراحيض خالية، الكل في هذه البلدة الصغيرة يأتي قبل الأذان أو عنده، لا يتأخر أحد عن تلبية النداء، خرج من مراحيض المسجد مسرعًا، يتلفت حوله، كان الإمام في تشهد الركعة الأخيرة من صلاة العشاء.

اكتشف عامل المسجد جثة القتيل، بينما رأي آخرون أبي القاتل وهو يهرع مسرعًا من المراحيض.

امتلأت البلدة بالشرطة وأحاطوا المسجد وخرجت جثة «هيثم» قتيل عمه، وسُجن أبي بعد محاكمته بتهمة القتل ثم حُكم عليه بالإعدام.

ماتت جدتي «زهرة» محتضنة صورة جدي كأنه وليدها الذي للتو رأته، كان وجهها مزهرًا، لم تكن جفت الدمعة في عينيها حينما أسلمت روحها، كانت في أواخر أيامها لا تتحدث ولا تذكر أحدًا سوى صورة جدي التي تحتضنها دائمًا كأنها طفلة ولُعبتها، حتى إنها ماتت ولم تعرف بأمر أبي وما جناه.

6

ألَقتْ برأسها ليختبئ وجهها بين كفيها، نحيب خافت وتمتمة بكلمات غير واضحة، ثم رفعت عينيها لتنظر لي وما زال نصف وجهها مختبئًا بين كفيها، عيناها تجري منهما الدموع كمجرى جدول أغناه منبعه.

«**ضعت وأضعتنا... من بقي لنا ولي، هذا إذا ما بقيت أنا... تكالبت عليَّ خطاطيف الحياة فلم يعد في روحي صحيحًا إلا ومزقته... أما جاء في خاطرك أنك كل ما لنا**»!

تعرقَ جبينها كأنها قطرات ندى في الفجر تبلورت على ورق الذرة... أخذ صدرها يعلو ويهبط ودقات قلبها تتسارع كأنما هي في سباق... رقدت مكانها وتركت رأسها تهبط كهبوط طائرة على مضمار... تباطأت دقات قلبها كأنها خسرت السباق... ارتشفت نفسًا عميقًا ولم ترجعه... شهيقًا لا زفير له... أسلمت يدها لأن تهوي كيفما شاءت الجاذبية... كأنها زهرة مُغمضة أمِنت أنها ستصحو مورَّدة في الصباح... لتجد نفسها تُسحق تحت قدمي طفل يلهو... لا الطفل شعر بما جنته قدماه ولا الزهرة تصحو حتى تلومه... هذا ما حدث مع أمي.

كنت ألعب بطبقين فارغين، ضربتُ أحدهما بالآخر فانشق نصفين، نظرتُ باضطراب إلى أمي النائمة باستسلام إلا أنها لم تكن معي، ناديت «**أمي.. أنا آسفة انكسر الطبق وأنا العب**» لم ترد أمي ولم تتحرك، وبقيت أنا لأُكمل لعبة إعداد الطعام لزوجي الذي لم يحضر من عمله بعد.

تسلل الملل حتى إنه بدأ يلتهم شغفي بلعبة الزوجة المنتظرة كما كانت تفعل أمي، عدت أنادي أمي ولكنها كما هي، لم تتحرك كأنها أميرة الثلج في تابوتها الزجاجي.

ارتشفتُ من الهواء بفمي كأنني ارتشف حساء ساخنًا، وهممت واقفة أتجه نحوها، هذه التي لا ترد عليَّ..

«**يا أمي**» رددتُ الكلمة أكثر من عشر مرات، أمسكتُ بذراعها وهززته أن تفق، كانت متصلبة، لا تُعير نداءاتي وضرباتي الصغيرة أي اهتمام، ظننتُها تعاقبني كعادتها، فقد كانت إذا ما اقترفتُ خطأ كانت لا ترد عليَّ ولا تحادثني، وكان الخطأ ما زال ساكنًا بشقيه على الأرض، فظننتها تجافيني من أجل الطبق المكسور، ولكنها أطالتْ وتعنتتْ في هذا الأمر كثيرًا، بكيتُ فسمعَتِ الجدران نحيبي حتى إنها ردتهُ عليَّ، الجدران من الطوب سَمعت ورَدت، وأمي لم ترد، أتعبني طول النحيب وأرهق عينيّ، حتى نمت وأنا لا أذكر كيف نمت.

صحوتُ ولا أذكر كم من الوقت نمت، ولكن أمي كانت على نفس وضعيتها، إلا أنها فيها أشياء قد تغيرت؛ قد ازرقتْ شفتاها، وتصلب جسدها وتخشب كأنها سمكة مُجمدة خرجت

لتوها من التجميد، اندفعت أصوات من بطنها كأنها تُفرغ غازاتها، فقلت لها «**قومي يا أمي أنا أعرف أنك لست نائمة وتضحكين معي وتخدعينني**» وهززتُها وضربتُها ضربات مُلحة على صدرها بينما كنت أنتحب، حتى تحركت ساقها حركة فجائية، والتفت على الساق الأخرى، وانثنى معصمها ساقطًا على يدي التي كانت تضرب على صدرها، ظننتها تُمسكني ألا أفعل؛ فقلتُ لها «**قومي ولن أضربك**»، إلا أنها كانت لا تقوم... فمن ذا يقوم من الموت!

تعالى عرير صرصور يطالب بالتزاوج ونميم فأر لا يُفسّر، غير أن هدأة الليل فسرتهُ، أنسمت رائحة كريهة، وأظلمت كما لو لم تكن تضيء يومًا، إلا من شعاعين تسربا من مصباح بالشارع مخترقين فتحتين بالنافذة ليستقرا على وجه أمي الذي بدا وقد تركته الحياة.

لم يعُد لي أحد، الكل طالتهُ يد الموت أو ينتظر، أخذتني جدتي «نفيسة» مكروهة لأعيش في بيتها بعدما باعت كل ما في البيت، بعد سلسة من السُباب والبذاءات مع عمي وزوجته، إلا أن الأخيران آثرا الرضوخ والإذعان تحت قسوة لسانها الزفر ووطأة بذاءة «**حمادة**»، الذي وقف شبه عارٍ بالشارع شاهرًا سيفه الذي رقص به في زفاف أمي متحديًا عمي «**إن كنت رجلًا وابن رجل وأرضعتك أمك من ثديها انزل لي**»، ولم يكن بوسع عمي أن ينزل له، لينتصر «حمادة» وأمه ويعودا بغنائم معركتهما القصيرة.

جلست «نفيسة» و«حمادة» على الكنبة يتقاسمان غنيمة بيع مقتنيات وأثاث بيت أمي وأبي، كنت جالسة على الأرض أرمقهما وصدري مثقل بعذابات فَقد الأم، أحسستُ بفورة تتصاعد من صدري فتضربُ برأسي لترتد لا تجد متنفسًا غير عيني فيسيل التنفيس دمعًا وتخرج من فمي آهات.

«**تأكلون أموال أبويّ وجدتي «زهرة»، ألم تشفق قلوبكم على حالي، وأمي ذبيحة الأيام، وأبي منتظر الموت، أتأكلون لحم أمي وهي من لحمكم ودمكم**»!

تجمدَ الوقت ولم يعد يمر، مرارة في حلقي، صرخت فيهما «**أموال أبوي لا يتمتع بها الأنذال**»! فتطاير الشرر من عيني «حمادة» كأنما هما حجران احتكا ببعضهما، وقفز وطوح كفه ليصفعني بوجهي، لترتطم رأسي بالأرض وأغيب عن الوعي، لأعود إليه بشهقة خَلفَها كوز ماء بارد انسكب على رأسي يتبعه بصقة من فم جدتي «نفيسة» نافست كوب الماء، وقالت بينما تركلني بقدمها ببطني «**أفيقي يا ابنة الكلاب! إن عاد صوتك يعلو علينا سأقص لسانك وأطعمه للكلاب**»، بينما ما زالت قدمها تطعن بطني، وما زال خالي «حمادة» يجلس القرفصاء على الكنبة يلف السجائر وينظر لي متمتمًا بعبارات تحض أمه على معاقبتي لأنني ناقصة تربية، ثم تابعت قولها «**انهضي... والله لأدبنك وأُنسيك الدلع والميوعة... انهضي يا لئيمة**».

ودفعتني ركلتها الأخيرة لأن أنهض لتكمل حديثها المتوعد لي «**اغسلي أرضية دورة المياه وبلاطات الحيطان، والكنيف أريده كالمرآة**» انتفض صدري وهبطت الدموع العالقة برموشي وقلت بحدة «**لا لن أفعل هذا...**» لم أكد أُنهي جُملتي، حتى وجدت صفعة على وجهي نزفت منها أسناني وأنفي، وسيلًا من السُباب البذيء انهمر على مسامعي، والوعيد بأن يومي لن يمر وأنها ستعرف كيف تؤدبني حتى ولو ألحقتني بأمي المتوفاة، فَلِمَ سأبقى ولمن سأبقى! التقطت «نفيسة» سلكًا كهربائيًّا مقطوعًا وجلدتني به جلد الحد الذي لا كفارة له سوى الجلد.

أضاءتْ لمبة صغيرة بنور خافت فرمت على الأرض ظلي كأنما وقع من السماء، حتى ظلي بدا متعبًا، «**أنادي... يا أمي أريدك... خذيني**»!

كان الليل قد انتصف وقتها، «ونفيسة» راحت في نوم عميق على الكنبة، صوت شخيرها يتصاعد كلما تعمقت في النعاس، وأنا أحاول أن أتماسك وأنا أبكي، لا أريد أن يخرج صوت لنحيبي، حتى لا تسمعني وإلا عاقبتني.

صوت خشخشة في الخارج وخربشة في الباب كأنها لمخالب حيوان ما، صوت هرير كلب يتماشى مع خربشات الباب، انتفضت «نفيسة» من نومتها، وانقطع شخيرها التي طالما أنهته بحشرجة مخيفة، وهمتْ بفتح الباب بخفة حتى تُفاجئ من بالخارج، الشارع

منغمس في الهدوء إلا من صوت نباح كلب يأتي من بعيد، والظلام لا يكسره سوى مصباح أرسل أشعته الخَجِلة، عادتْ وهي ترميني بنظرات كأنني المُتسببة في إقلاقها.

وفي الصباح وجدت ملابسي مُبتلة، وغطاء قديمًا يقوم بدور البطانية قد ابتل، فقد تبولت على نفسي ليلًا، بالرغم من أنني كنت أتبول في الحلم، ولكن اتضح أنه في الحقيقة ولم يكن في الحلم.

رأت «نفيسة» بنطالي وفراشي المبللين فقد كان الأمر واضحًا، صرخت في وجهي وجذبتني كما لو كنت بهيمة وأردت ملابسي التي ارتسمت عليها جنايتي كفطيرة، وعرتني تمامًا وأنا أبكي، وقامت برمي دلو ماء بارد على رأسي، بينما لسانها يكيل لي الشتائم واللعنات ولم تترك شبرًا في جسدي إلا ورسمت عليه بكفها صفعات حامية.

عقابها لي لم يُقنع مثانتي وتتوقف عن التبول ليلًا كل يوم، لا أعرف ما العلاقة بين التبول ليلًا والخوف، ذلك الوحش الرهيب الذي يقتطع من روحي يوم بعد يوم.

في الليالي التالية تكررت فطيرة التبول في ملابسي، وكان لكل يوم عقاب، إلى أن أتى يوم وقد تبولت علي نفسي في النوم وأثناء عقاب «نفيسة» لي وضرباتها وقرص فخذي حتى ازرق، تبولت على نفسي بينما يدها تقرصني بفخذي، ثارت هائجة ودفعتني إلى الأرض، وذهبت وعادت بذلك السلك الكهربائي، فرفعت كفي على وجهي أتقي ضرباتها، ولكنها لم تضرب، قامت بتقييد يدي، وأغلقت الباب خلفها وذهبت، لتعود بعد قليل وهي تقبض على سكين استعر

نصلها، ولم تعطني أي فرصة لأن أقاوم، جلستْ على ساقيَّ، فارجة بين رجليها لتحتويني بداخلهما، تواجهني بسكينها الملتهب، وأنا طريحة عارية أمامها، لم أستطع الحراك، وفجأة أحسست بألم حارق بموضع عضوي الذي أتبول منه ويتسبب في تعذيبي كل مرة.

لن أستطيع أن أصف لك الألم الذي عانيته، عليك أن تجربه حتى تعرفه، ستبقى الكلمات غير قادرة عن وصف ألمي. للألم لغة واحدة هي التجربة، فلكي تتعلم مفرداتها وتفهمها عليك فقط أن تجرب.

مرت أيام والألم يتغافل ولا يخبو، وشعرت ببعض التحسن وما كنت لأشعر به إلا باجتناب غضب «نفيسة»، فإذا تبولتُ على نفسي قمت قبلها ونظفت المكان ومحوت كل الآثار حتى لا تلحظها، وقد كنت أنجح أحيانًا وأخفق أحيانًا أخرى.

وفي يوم سمعتهما يقولان إن أبي مسجون في سجن «طنطا العمومي»، فعزمت أن أذهب إليه، فهو الوحيد القادر على إنقاذي.

انتظرت حتى خرجت «نفيسة» إلى جولتها الصباحية في السوق، وخرجت من الباب أتلفت حولي، كان برد الشارع قارص، مشيت حتى تعبت قدماي، ركبت السيارة، ولم يُبد أحد من الكبار الجالسين في مقاعد العربة أي استغراب من أن تذهب فتاة وحدها في سني الصغير، ولكن لِمَ يشغل أحدهم باله في شيء من الممكن أن يجلب له صداعًا هو في غنى عنه! أو يورط نفسه في مغبة إعادة طفلة تائهة لذويها، لذا لم يُقدم أحد أن يسألني عن وجهتي أو كيف أسافر وحدي، وأين أبواي أو عائلتي، حتى وإن تساءلوا في داخلهم وظهر على وجوه بعضهم!

دفعتُ أجرة العربة من المبلغ الذي كنت قد أخذته من مخبأ أموال «نفيسة» دون أن تعلم أنني عرفت بمكان مخبأها، وأمام السجن مررتُ بشجاعة بين الحواجز الحديدية التي طوقت مدخله، حتى وصلت أمام أمين شرطة حملق فيَّ وقال:

- **ماذا تريدين يا جميلة؟**
- **أبي بالداخل وأريد أن أراه.**
- **غير مسموح يا حبيبتي.. من معك؟**

وكأنني لم أستمع لسؤاله لأردد وأصابعي متشابكة بجاكتته الحكومية السوداء وعيناي تغرقان بالدموع:

- **والنبي يا عم أرجوك أن تذهب بي إلى أبي.**
- **أأنت وحدك؟ أين أمك أو أهلك؟**
- **أمي ماتت ولم يعد لي أحد غير نفيسة وتؤذيني حتى هربت منها وأريد أبي.. أرجوك!**

جاء شخص آخر أعلى رُتبة منه مُستفهمًا عن سر بكائي وتشبثي به، وأُعيدت عليَّ نفس الأسئلة التي كنت قد أجبت عنها، ولكنني لم أجد غضاضة أن أُعيد إجاباتي مرة أخرى وأستفيض فيها مع البكاء الذي خنق صوتي، ليطبطب على ظهري بيده وأجد منه حنوًا وتأثرًا ما وجدتهما منذ فقدت أبوي وجدتي «زهرة»، لينظرا لبعضهما ويقول أحدهما:

- **سأدخل بها إلى المعاون لعله يدخلها إلى أبيها لتراه ويراها.**

ثم قال موجهًا الكلام إلي:

- **ما اسمك يا جميلة؟**
- **اسمي «دنيا».**
- **وأبوك ما اسمه؟**
- **دنيا سعيد محمد عبد المقصود.**

نظرا لبعضهما نظرة من يستصعبا المهمة التي أوكلتها لهما دمعاتي، وأنا ما زلت أشهق شهقات متقطعة وأرجوهما بكل ما هو عزيز ويُرتجى، «**والنبي! خذوني لأبي**»، علني لا أخرج من عنده أبدًا.

اتسعت عين الرجل وبدا وكأنه تشجع وصمم على شيء فأمسك بيدي وهو يقول لزميله الآخر:

- **سأُدخلها للسيد المُعاون، وليكن الله في عوني وعون المسكينة.**

اطمأن قلبي قليلًا، وتسارعت دقاته لعلمه باقتراب معركة أخرى لا بد من الفوز بها، قبض بأصابعه الخشنة على كفي الصغير، ودخل بي مكتبًا به ضابط شبه نائم وهو جالس، فأدى له التحية، فتنبه الضابط لوجودنا ورماني بنظرة مستفهمة وقال:

- **ابنتك هذه يا «عبده»؟!**
- **لا يا سيدي.**

وبدأ يقص له ما حدث بالتفصيل، وما قد قصصته عليه منذ قليل، وبدا متعاطفًا مع قصتي إلا أنه قال له:

- **أنت تعرف أن هذا ممنوع.. ومن الممكن لو فعلنا وأدخلنا الفتاة لأبيها أن نُجازى.**

اتسعت عيناي التي لم تكن قد جفت منها الدموع، وتقلص ركن فمي مُنذرًا عن البكاء ورميتُ الرجل بعينينِ دامعتينِ متوسلتينِ، ففاضت عينيه بدمع أسرع في مسحه بكمه، وقال للضابط الذي بدا يحتاج لدفعة أخرى من التوسل:

- **سيدي أنت ترى حالها، ليس لها أحد وأبوها كما تعلم ليس له إلا أيام ويلقى ربه، وليجعلها الله في ميزان حسناتك إن أرضيت قلب هذه العصفورة الصغيرة، والله من يراضيه لن يجد إلا رحمة الله.**

رق قلب الضابط على غير سجيته التي يظهرها وأغمض عينه هنية متفاديًا هبوط دمعه:

- **محمود باشا وصل؟**
- **لم يصل بعد.**

فقال وكأنه حزم أمره:

- **اذهب.. وأحضر أباها هنا.**

تهلل وجه عم «عبده» كأنما فاز بجائزة ما، وذهب مسرعًا بعدما ربت على ظهري برفق مشيرًا لي أن أجلس على الأريكة المواجهة لمكتب الضابط، وتشجعت حينما وجدت ابتسامة الضابط ارتسمت على وجهه التي قلما ابتسم، وهمَّ بالخروج حتى جمده نداء الضابط قائلًا:

- **يا «عبده».. ابعث لها عصيرًا مع «متولي».**

فأومأ برأسه مبتسمًا ومضى.

دقيقة واحدة وجاءت علبة العصير، شربتُ منها مُنصاعة لإلحاح الضابط الذي أخذ صيغة الأمر، كان صدري يقذف بشوقه حتى دفئت الأجواء من حوله، أنفاسه متلاحقة، دقاته مسموعة، مر الوقت القصير كأنه عُمر.

ثم لاح أبي من الباب بحالته المزرية، طل الاندهاش من وجهه حينما رآني، فلم يخبره عم «عبده» عن سبب اقتياده إلى مكتب الضابط، لم يسألني عن كيفية مجيئي، لم نتكلم، طرت في أحضانه وهو لقفني ككرة مركولة على حارس مرمى، أجهشنا بالبكاء كأنما لم نبك من قبل، حتى امتزجت دموعنا معًا، طبع قُبُلاته على كل أنملة فيّ، حشرجة البكاء منعت صوتينا من الخروج، ضمني إليه كأنما يريدني بداخله وكنت أتمنى ذلك، الحياة خارج أحضانه قاسية، بينما وقف عم «عبده» متسمرًا عند الباب، دموعه تنحدر حتى فمه، وأدار الضابط كرسيه ليخفي وجهه الباكي، ثم لملم نفسه وقام من كرسيه مصطحبا عم «عبده» وخرجا، وأغلق معه باب المكتب لأنفرد بأبي.

جلسنا مواجهين لبعضنا، عيناه كانتا حمراوتين دامعتين تحتهما ذلك الهلال الأسود، زميل من أعياه الأرق والهم، رمقني طويلًا ثم عاد وأحاطني بذراعيه وتهنف وأجهش في البكاء حتى انخرطنا في موجة نحيب مرة أخرى، كنحيب أم ثكلى، استجمع أبي شتاته وقال لي بصوت متقطع حزين:

- كيف جئت إلى هنا؟
- هربت من «نفيسة» وجئت إليك.. أنا أحتاجك يا أبي ولا أريد أن أبقى معها.. فهي تُغالي في أذيتي وتضربني ضرب من لا تريد الإبقاء على حياتي.
- كيف يا بنيتي؟ لِمَ فعلتِ ذلك، عليك التحمل فهي كل أهلك الآن، أعلم أنها قاسية بعض الشيء، لذا نفذي ما تقوله لك ولا تثيريها ضدك وكوني مطيعة، فهي كل ما بقي لك وليس هناك من بديل، ينفطر قلبي على حالك... أنا مقترف الخطايا التي زجت بك إلى طريق العذاب هذا، ولعل رحمة الله تدركك، أدعوه يا بنيتي ليل نهار أن يحميك ويصلح حالك، لا أدعوه لنفسي فأنا مستحق لعذابه ولكنك لا تستحقين عذابات الدنيا.
- أبي.. أرجوك اتركني معك هنا.
- هذا الأمر مستحيل يا حبيبة القلب، أيام قليلة متبقية وأموت، وكل ما يوجع قلبي هو أنت وأمك التي ماتت جراء رعونتي وثورة أعصابي، أنتِ الآن كبيرة ويجب أن تتفهمي، إن كنت تحبين أباك فعودي إلى جدتك وعيشي وتحملي قسوتها.

وأخذَتْ دمعاته تتنزل في جدول يحفر مجراه على خديه، وقبلَ رأسي وجبيني ويديّ، راجيًا أن أفعل ما يقوله لي، لم أجد ردًّا غير أن أوافقه على خلاف ما يُضمرهُ قلبي، فُتح الباب وعاد الضابط وعم «عبده» مرة أخرى موجهًا الكلام لأبي:

- **نعتذر منك يا أستاذ «سعيد»، ولكن لا بد أن ترحل ابنتك حتى نتجنب المشكلات التي قد تأتي جراء وجودها هنا.**

قام أبي واقفًا متحسرًا وقال للضابط:

- **لي رجاء لو أمكن... أن يذهب معها أحد ليوصلها لبيت جدتها، وإن شاء الله يكون إضافة إلى حسناتك وحسناته.**

قال عم «عبده» بحماسة:

- **أنا سأوصلها، هذا بالطبع بعد إذن سيدي الضابط.**

عانقني والدي عناقًا أخيرًا، تعلقتُ بيدي الملتفة حول رقبته، ورحت في نحيب حتى ازرقَ وجهي، ذراعي الملتفة لن تفلته مهما حاول، بكيت كثيرًا وهو يحاول أن يدفعني إلى عم «عبده»، أنادي عليه، أستعطفهما، بينما يحاولان فك جسدي الذي ألصقته بأبي، حملني عم «عبده» إلي حيث يستقر الباب المفتوح، لأرى أبي يهوي على الأرض كبناية قديمة تسقط، أنزلني وتركني لأجري نحو أبي الذي أُغشى عليه، ارتميت على صدره، خطا الضابط بسرعة وكأنه قفز ومعه زجاجة ماء، رش على وجهه، فاختلطت قطرات

الماء بدموعي التي تشربتها بذلة الحبس بعد أن تركت أثرًا فيها، استرد أبي وعيه بينما ما زال باكيًا، وقال كلمات أشبه بمن يخاطب نفسه «**كل حياتي السابقة تبدو وكأنني كنت أختار... ولكنني لم أختر شيئًا منها.. كل شيء لم يكن له بديل كي أتخير منه... حتى لو صَبغَتهُ الاختيارية... يبقى قلب النسيج على صِبغة الله وتقديره**».

هذا هو الشيطان فلا تخف
أتراه... ليس له قرنان أحمران!
ولا ذيل مدبب ولا أنياب ولا حوافر ولا مخالب!
هو لا يختفي ولا يتواجد من العدم!
هو لا يطير ولا يتحول إلى دخان!
قد يقتلك... قد يؤذيك... قد يسبب أحيانًا بعض الألم
هو برأس ووجه مقبول
ويدين وقدمين وعينين وأذنين وأنف مقبول
وهيئة وطول وعرض وشكل مقبول
هو مقبول
الشيطان ما هو إلا إنسان مقبول

من أغاني الطور الأول

ارتجفتْ «نفيسة» حينما رأت يدي مُعلقة ببذلة «عبده» الميري، وقالت تستجمعُ نفسها:

- **خير يا سيدي، أسرقت أم فعلت سوءًا هذه البنت؟**
- **لا لم تفعل شيئًا.. أأنت جدتها؟**
- **نعم!**
- **لقد جاءت تزور والدها بالسجن وطلب مني أن أوصلها إليك.**

همت مستجمعة جميع قسوتها تنتزع يدي منه قائلة:

- **وكيف ذهبت أيتها الملعونة، والله لأذيقك المرارات كلها.**

انزويت خلفه وهو واقف حائلًا بيننا موجهًا كلامه بحدة:

- **لا تعاقبيها ولا تمسيها بأذى فهي صغيرة وخائفة، عليك أن تكوني حنونة معها فليس كل خطأ تجدي معه الشدة.**
- **لا أشتد معها يا سيدي، ولكن ضع نفسك مكاني، لقد هربت من البيت ولا أعرف أين ذهبت، وأنت تعرف موضوع خطف الأطفال السائر في البلد هذه الأيام، خالها «حمادة» لم يذق الراحة منذ اختفيت، يبحث عنها في كل مكان.**
- **الحمد لله يا سيدتي على سلامتها، وسأمر كل حين لأطمئن عليها، فوا لله إن قلبي لينفطر عليها.**

- **يشرفنا حضورك في أي وقت.**
- **أستأذن.. حتى لا أتأخر على القسم.**
- **مع السلامة.**

أمسكتْ «نفيسة» بيدي وفركت أصابعي حتى آلمتني، بينما يختفي عم «عبده» في ثنايا الشارع، سحبتني إلى البيت وضربت الباب خلفها، ليظهر «حمادة» وكأنما ظهر من العدم، فقد كان خلف الباب يتلصص، وما إن انغلق الباب حتى صاح بغضب:

- **تأتي بالشرطة حتى مكاننا يا ابنة الكلاب.**

وصفعني صفعة ترجرج منها مخي داخل رأسي، وانطفأت عيني لتضيء بنورٍ أحمر، وغبت عن الوعي كأنني نمت أو مت لا أعرف، ويا ليتني نمت نومة طويلة لا أقوم منها، فلا تجدني هذه الشيطانة، ولكنني قمت من غفوتي أو ميتتي الصغرى على كوز ماء بارد صفع وجهي لأشهق وأعود للحياة، لأجد يديّ مقيدتين إلى بعضهما في قدم الكنبة، وقدمي أيضًا مقيدتين بالقدم الأخرى للكنبة، ليتوازى جسدي مع جسد الكنبة المتعب، «ونفيسة» شاخصة تحمل الكوز الفارغ، و«حمادة» يجلس قبالي على الأرض يرقب جسدي الذي طال وقارب طول الكنبة، لافًا سيجارته اليدوية، ليقطع المشهد صيحة «نفيسة» بالتوعد:

- **والله لأدبنك يا حقيرة ولأجعلك ذليلة!**

وأسرعت إلى المطبخ، ليندفع صوت اصطدام الكوز المعدني على طاولة المطبخ المعدنية منذرًا عن بدء جولة جديدة في حلبة العذاب، «حمادة» الذي ما زال يحلق بعينيه في جسدي الممدد نافثًا دخانه، وأنا ما زلت أتلوى محاولة الخلاص الذي بات مستحيلًا.

عيناي تنتظران بخوف عما ستخرج به «نفيسة»، حتى خرجت قابضة بيدها على سكين مستعرة النصل، وهي تردد كلمات عن تأديبي وعن قدمي التي استعملتها للهروب وجلب الشرطة والمشاكل حتى بابها، أخذتُ في الصراخ عاليًا، قدماي يتخبطان في قائم الكنبة، لا خلاص.

أمسكتْ بيدها ساقيّ، ولكن قوة خوفي منعتها من إحكام قبضتها وتثبيتي، فجلست على ساقيّ، حتى سمعت طقطقة العظام وكأنها هُشمتْ، أخذتُ في الصراخ والبكاء، وترتجفُ أوصالي، ويرتعشُ قلبي، حتى التصق النصل بكفة قدمي مُحدثًا «طشة» كصوت الحديد الساخن بالماء، شهقات متلاحقة، وألم ينخر في رجلي من موضع جلستها بأردافها الممتلئة، حتى النار التي ما زالت مستعرة في كفة قدمي من أثر النصل، دمعات تتنزل من عينيَّ من تلقاء نفسها، آهات تخرج من بطني لا يعرف عنها فمي شيئًا، صرير الأسنان تصطك.

رفعتْ ردفها عن ساقيَّ التي جمدتهما الأوجاع، وما زال لسانها يكيل بالسباب والشتائم البذيئة، وما زال خالي «حمادة» ينفث دخانه متفرجًا باستمتاع كأنه يشاهد إحدى مقاطعه البذيئة على هاتفه.

مر هذا اليوم، وقد تغير كل شيء، كان الخوف متجسدًا في عملاق ينهش روحي كل ساعة مع أي نظرة أو كلمة منها، كأنه كائن أسطوري مخيف، فبنظرة عدم رضا من صاحبتهِ يفتك ويدمر، ساقيّ وقدمي تؤلمانني، ولكن لا أقوى على المجاهرة بالألم حتى لا تزيدهُ لي، صرتُ أتعرج في مشيتي إذا ما تحملت على نفسي وأمشى بعناء أجر رجلي جرًّا.

حتى خربشة الباب التي لم تكن تخيفني أصبحتُ أفزع منها، مع دمدمة الكلب على الباب، فتحت «نفيسة» النافذة فوق الكنبة التي يستقر عليها جسدها اللعين، لتهتف:

- **أنت إذًا يا ابن القذرة! قد عرفتك؟ تأتي لتشاغلني حتى ظننتك جنيًّا أو عفريتًا وأوشكت أن أكلم نفسي؟ والله إن أمسكتك لأذبحك وأرميك جوار صاحبك في كومة القمامة.**

ابتعد النباح ينبئ عن ابتعاد صاحبه، إلا أن صوت النباح كان يرن محدثًا صدى شديدًا، الكلب الذي وقف بعيدًا نابحًا متحديًّا سباب نفيسة ووعيدها.

ساقي تورمت وصرتُ لا أستطيع أن أدوس بها الأرض، كلما شكوت من الألم كانت نظرة «نفيسة» تنهرني وتخيفني، «**هذا دلع**» وكان عليّ أن أنسى كل هذا الدلع إلى الأبد، كل ليل وأنا نائمة لا أشعر إلا وقد بللت نفسي، أصبح ذلك يحدث بدون أي إرادة مني.

خرجت «نفيسة» إلى السوق، ولم تنس أن تعطيني مهامًّا لأنجزها قبل عودتها التي لم أكن أتمناها، دخلتُ أتسند على عصا لأتمم أولى مهماتي.. غسيل الأطباق وتنظيف المطبخ، كنت أتناول الأطباق وأجلس على الأرض لعدم استطاعتي الوقوف والعمل.

عاد «حمادة» من سهرته التي تمتد إلى الصباح، وجدني بالمطبخ على الأرضية أمُدد ساقي منفرجة بينهما الأطباق التي أقوم بغسلها، سألني عن أمه، فأخبرته بأنها ذهبت إلى السوق، جلس متربعًا أمامي، وصار يضحك ويردد أغاني بذيئة، تفحص ساقي الذي انكشف عنهما الفستان القصير الذي جلبته لي «نفيسة» من أحد ما، كنت أظنه يتفحص ما ألمَ بساقي وأعلى ركبتي من تورم وزُرقة... كنت أظن!... فقط أظن... وظننته لن يخرج عن مرحلة الظن، جاء لاصقًا نفسه إلى جواري ورفع فستاني إلى أعلى فخذي وهو يقول:

- يا لك من مسكينة! لا بد أن ساقك تؤلمك كثيرًا.

ولم تكن عيناه على ساقي المتورمة فحسب، ثم وضعَ يده في ذلك الموضع الذي كنت أظنه للتبول فقط، لن أقص عليك أكثر من هذا، فهذا الذي حدث يمزقني ويمزق روحي حتى وأنا ميتة، تركني «خالي حمادة» في إعياء شديد، حتى جاءت «نفيسة» ورأت حالتي وأخبرتها بما فعله ابنها، فصرخت وانهالت عليَّ بالضرب والشتائم القذرة، ودخلت إليه بينما كان نائمًا في سريره، وأيقظته، وظلا يتشاجران ويسُبان بعضهما حتى دفعها من الغرفة وأغلق الباب وعاد إلى نومه، عادت إلي وجرتني من شعري إلى دورة المياه وأنا أصرخ،

وأزالت فستاني القذر الذي لطخته بقعة دم حديثة! وأجلستني بقسوة على الأرض غير مُبالية بجروحي وحروقي المستعرة، وفتحت صنبور الماء على رأسي، كنت أبكي من كثرة الآلام في شتى أجزاء جسدي، ثم تركتني وخرجت بعدما حذرتني ألا أتحرك من مكاني، وكنت بدون تحذيرها لا أقوى على الحركة من مكاني، عادت لتحملني إلى الكنبة التي تنام فوقها وكنت أنا أنام تحتها.

ربطتني إلى الكنبة عارية، قيدت كل ساق في قائم وأدارت يديّ من فوق رأسي وربطتهما كل عليّ حدة في القائمين الآخرين، كنت أبكي كثيرًا من الألم، ولم أكن أفهم لِمَ تربطني هذه الربطة، فأنا المجني عليها.

ثم ذهبت إلى المطبخ بعد أن كممتْ فمي بخرقة قطعتها من ثوبي المبتل والمُهترئ، كان قلبي يرتعد، الآلام تعتصرني، الجروح والحروق نقشت جسدي الهزيل، تسارعت دقات قلبي كأنها تتسابق، عيناي احمرتا من البكاء، صدري يلهث في انتظار ما سيأتي من عذاب، وهي لم تجعلني أنتظر كثيرًا.

عادت إليّ بالسكين المستعرة نصلها، أنين مكتوم كتمته هذه الخرقة التي تُغلق فمي، شفتاي تتصارعان للخلاص، تمتمت بكلام وهي تضع النصل الحامي على نفس الموضع الذي هدره «حمادة» منذ قليل، كأنما تغلق على جريمة ابنها.

«أيتها القذرة العاهرة ألا تصونين نفسك! أتريدين أن تهدمي هذا البيت كما هدمت بيت أمك وأمتيها! يا لشؤمك، إن اقتضي الأمر أن أقطع لسانك بالمقص سأفعل حتى لا تفضحينا وترددي تلك الافتراءات والأكاذيب عن خالك واغتصابه لك، لا بد أن فعلها غيره أيتها الفاجرة الكاذبة».

لم أتحمل الألم غاب وعيي، ليعود على أثر دفقة ماء باردة يتبعها بصقة لها رائحة سيئة من فمها على وجهي، وعاد الألم مرة أخرى.

ليت ما عندي وعي طالما أنه يأتي لي بالألم، حُرقة الألم أسفل بطني تعتصرني من الداخل، تتباطأ دقات قلبي رويدًا، وينطلق صدري في عنف ذهابًا لا إيابًا منه، ويزفر حشرجة قاسية، الهواء لم يعد كافيًا في هذه الغرفة، أتلوى وأرتعش لا أعلم مِمَّاذا! تعرق جبيني حتى إنه بلل شعري الذي كان قد جف، أصرخ ولا يخرج لي صوت.

«يا أمي أما كفاك غياب؟! خذلتِني وذهبتِ إلى القبر وحدك، لو أخذتيني معك ما جربت هذه الآلام، لا بد أن الله يرى، لا بد أنه يسمع، إن كنت في جنته فأخبريه أن يضمني إليك، إني أراك الآن أمامي، أيتها القاسية كيف تموتين وتتركيني إلى من لم يرحمني»!

خيالات تأتي بزحام مُتداخلة... أمي كما الملاك ينقصها أجنحة تقف في شرفة بيت ملوحة لي ومبتسمة... سكين تحز عنقي... موسيقى وأطفال بزي مدرسي موحد يرقصون... نفس السكين تحز عنقي ثانية... مدرس يكتب على السبورة... آلة موسيقية تعزف

وحدها لحنًا أعرفهُ... أبي عاقد حاجبيه حزين... وأطفال بزي مدرسي يتساءلون عن شيء ما... حافلة بلون أخضر تطير... الصور تتداخل... تقترب وتبتعد... تختة وجدران بيضاء وصوت جرس المدرسة... وأطفال يصيحون... ونفس السكين تحز عنقي.

يا أبي
لا أريد أن أموت مُنفزعًا
العِفريت تحت الفراش
وخلف الستائر مُختبئًا
يا أبي
أريد الموت بالقرب منك
أريد الموت مبتسمًا

من أغاني الطور الأول

7

في اليوم التالي، كنت كما أنا على نفس الكنبة، ولكني ما عدتُ مُقيدة، فليس هناك ما يدعو لتقييدي، فلم أعد أقدر على الحِراك، بالكاد أبكي، كانت «نفيسة» قد ألبستني فستانًا فضفاضًا آخر لا أعلم من أين جلبته، لكنه كان قديمًا وبه تمزقات شتى، ورمت عليَّ بطانية قديمة، وأطعمتني، لا تريدني ميتة على أي حال، خوفًا من المُساءلة التي قد تلاحقها.

دق الباب دقات متتالية، قامت نفيسة تفتح الباب، إذ «بعبده» أمامها، تلعثم صوتها وهي ترد عليه السلام ليقول لها:

- **جئت لأطمئن على جميلتنا الصغيرة، فوا لله ما خرجت من ذهني منذ جئت بها إليك، وأمس قد حلمت بها وجاءتني في المنام، فأقسمت أن أستأذن من القسم وآتي لرؤيتها.**

اضطرب صوتها وتلجلجت وهي تقول:

- **إنها ليست موجودة، أخذها خالها في نزهةٍ بالحديقةِ.**

سمعتُ هذه الكلمات بينما أنا راقدة أتلوى، وجاءتني أمي وأخبرتني أن هذه فرصتي التي قد تكون الأخيرة، تحمستُ، اندفعت كلماتي كالشلال دفعة واحدة لا يبطئها ألم أو وهن:

- **النجدة يا عم «عبده» إنها تقتلني.**

كان صراخي عاليًا، حتى إنه دفعها التي كانت قد أغلقت الباب أمامه بجسدها، فوكزها بكتفها فتنحت جانبًا رغمًا عنها، ودخل «عبده» الذي وجدني كالجثة المُمددة على طاولة التشريح، وقد انزلقت البطانية من حماسة صراخي ورعشة جسدي حينما كنت أصرخ عليه، ليرى ما كان عليه حالي: ساقيَّ وقدميَّ الزرقاوات يشوبهم لون أحمر مكسو عليه خضرة عفن الخبز، صُعقَ الرجل، ولفني بالبطانية، وحملني وهم بالخروج من البيت الذي كانت على بابه «نفيسة» تقف متحدية تقول له:

- **إلي أين تأخذ حفيدتي ولحمي؟!**
- **أيتها الظالمة الكافرة، إن لم تتنح والله لأضع رصاصة في رأسك.**

تنحت نفيسة بعدما وجدت منه الإصرار والغضب، خرج بي إلى الشارع حيث تجمعت نساء الجيران أمام بيوتهن أو في النوافذ يتفرجن، حتى قالت إحداهن:

- **الحمد لله، ربنا يسترك أنقذت هذه الطفلة المسكينة لقد كنا نسمع صراخها وتنفطر قلوبنا عليها.**

رد عليهم باستياء فيما يشبه الصراخ:

- **وما منعكن يا ظلمة!**
- **كنا نخاف من جدتها ولسانها الطويل البذيء وخالها وبلطجته.**

رددها بينما خطواته تتعجل الوصول إلى العربة:

- **أنتم شركاؤها في تعذيب هذه المسكينة.**

«آه! يا منافقين، يا مجرمين، الآن نطقت ألسنتكم، ألم يقذف بكائي وصراخي في قلوبكم رحمة، أمنعكم السُباب والشتائم فمنعتم رحمتكم عني، إني سأقتص منكم، والله لأقتص منكم عند ربي».

أسرعَ بي «عبده» إلى عربة الشرطة الواقفة عند أول الشارع، وأدارها لتهرع إلى أقرب مستشفى فأدخلني بالطوارئ، وحرر محضرًا ضد نفيسة وابنها.

هلعت الممرضات من حالتي، بكت بعضهن، وقالت إحداهن بعدما حكي لها ما حدث لي:

- **ما بال هذه الجدة! كيف تَأَتَّى إلى قلبها أن تفعل هذه الفظائع بحفيدتها من ابنتها المتوفاة! ما هذا الكفر والفُجر!**

استجمعت ممرضة بدينة ما تدلى من أنفها بمنديل ورمته في سلة قمامة بجوارها ثم قالت:

- **هذه اللعينة، التي سيلفظها القبر، وستأبى ديدان الأرض أن تأكل جسدها الدنس، قد أحرقت وطمست حلمات صدرها، وكوت بطنها كأنها قطعة من البلاستيك.**

ثم عادت الأولى التي كانت على وشك الدخول في وصلة نحيب لتقول بكلمات متقطعة:

- **لقد قال لي الطبيب «محمد شكري» إن الحرق في عضوها سبب غرغرينا وتليفًا، ومن الصعب الشفاء، لقد أحرقتها جدتها ظنًّا منها أن ذلك سيخفي جريمة ابنها واغتصابه لها.**
- **يا الله! كيف يفعلان ذلك بالمسكينة، إنهم ليسوا بشرًا، والله حق أن ينزل عذابه علينا، فما نحن ببعيدين عن قوم عاد وثمود!**

وقف «عبده» بعيدًا عنهن، قلقًا ينتظر الطبيب حتى يستفسر منه عن حالتي، حتى حضر بعد قليل وأخبره أن ساقي لا بد أن تُبتر حالًا، وإلا سأموت خلال أيام، فقد انتشرت الغرغرينا بها.

أسرعَ الجميع وتجهزت غرفة العمليات، وتم بتر ساقي، لم يستغرق الأمر الكثير كأنها ساق لإحدى العرائس البلاستيكية التي تكتظ بها غرفتي بالمستشفى، وجاء الأطباء من شتى أقسام المستشفى وأحيانًا من خارجها، يتفرجون على جسدي المطحون من العذاب، ويمصمصوا شفاههم تأثرًا، ويرددون الحوقلة، صارت

قصتي قصة للجميع، حتى مشت تحملها الألسنة، وأصبحت تُقصُّ على المقاهي.

صوروا جسدي المنهوب على هواتفهم ليدعموا رواياتهم ويزيدوا من التأثر متبوعًا بمصمصة الشفاه بالتزامن مع الحوقلة، صرت مزارًا، يأتيني أناس لا أعرفهم، يأخذون صورًا لي، ويتركون لعبة أو عروسة بلاستيكية إلى جواري كأنهم يدفعون ثمن الفُرجة عليَّ، أيظنون أني أهتم! أو من المفترض أن ألهو! أو أبتسم! أيها الزائرون رفقًا بمن إحدى قدميها في القبر، لا أريد ألعابكم ولا هداياكم، لا أريد منكم شيئًا بينما أريد أن أموت، أريد الموت بهدوء وسلام.

كنت أحتضر، وأتحضر لما بعد هذه العذابات، عيناي مشوشة، لا أرى بوضوح، كأن على عيني عدسة نظارة بقياس مغاير لقياس نظري، أبي يقف باكيًا بينما يده اليسرى مُقيدة ليد «عبده» اليمنى، لا أعلم إن كان هذا أبي الباكي على سريري وينفطر قلبه من النحيب أم يُخيل إليّ! فلقد كانت أمي هنا منذ قليل، ابتسمت لي والدموع بعينيها.

أظنني بين عالمين: صحوة الدنيا، وغفوة الموت، أنا في البرزخ بينهما، أسمع أبي يختنق ببكائه، كالطفل الذي ترك رحم أمه للتو، إنها تظلم فجأة فلا أجد أحدًا ولا أسمع أو أرى أحدًا وتعود لتضيء على وجه أبي الضارب في البؤس الذي انحنى على جبيني بشفتيه يطبع قبلاته بينما عيناه تُمطران، سال أنفه، لتزيد من سيولته ما قد التحق به من رذاذ عينيه، السماء مُلبدةٌ بالغيوم في داخل عينيه.

الآن أنا أرى بوضوح، أرى كل شيء وأسمع حتى الأنفاس الحبيسة التي لم تخرج بعد، ازداد بكاء أبي بينما ارتجف وجه «عبده» المُعلق بي، صرت الآن أسمع بوضوح ما كان غير واضح منذ قليل، أبي يصرخ ويردد مسائلًا الطبيب الذي هرع إلى جسدي الفارغ المُمدد «**أماتت ابنتي؟ يا لوجع القلب! عذبوك وقطعوا جسدك يا حبيبتي! وأنا من فعلت! أنا من أعطيتك لهم! أنا قاتلك يا بنيتي! أنا مُعذبك وقاتل أمك**»!

وبكى وأطال في البكاء والنحيب، كأنه يُنهي باقته التي تم شحنها له، الممرضات تجمعن حول سريري، أسمع صوت جلبة وفوضى تختلط مع بكائهن ونحيبهن، الآن فقط أشعر براحة لم أكن أعرفها من قبل.

سمعت أحدهم يتساءل عن ساقي المبتورة ليرد عليه الطبيب بأنها ما زالت في ثلاجة المستشفى، فعاوده يسأل «**ستدفن إذًا**»؟ فقال له «**بالتأكيد ستدفن إن شاء الله**»، ليهز رأسه في تأثر وغمغمة «**ليرحمها الله من العذاب وليجازي الجناة الآثمين**»!

أظن أنني لن أجتمع بساقي مرة أخرى... إلا تحت التراب! الأطباء والجيران وآخرون والكثير لا أعرفهم سيتمسحون بذلك الصندوق الخشبي الذي سيحويني، تارة بحملهِ وتارة أخرى بمحاولة حملهِ، هم يعرفونني ويعرفون قصتي جيدًا، سوف يقفون أمام القبر، ويخرجون جثماني الملفوف بقماش أبيض غير مَخيط، ثم يتركوه بالقبر ويرحلون.

أنا أسمع أصوات بكائكم، أنا أراكم أيها المتفرجون الزائرون الصامتون! سأترك لكم قصتي تلعنون أنفسكم ويلعنكم كل من يعرفها.

لا أعرف إن كنت ميتة الآن أم لا؟! أحادثك الآن من مكان مظلم، صوت دقات قصيرة تنقلب إلى صفير في بعض الأحيان... لا أعلم أين أنا؟! أظنه القبر... لا أعرف! ولكن إذا كان هذا هو القبر فهو ليس كما كان في مخيلتي، تلك البناية الضيقة المظلمة الرطبة، لا... لا صدقني هي ليست كما تخيلت، أو كما يرسخ في مخيلتك، من المؤكد أنك رأيت قبرًا قبل ذلك ومن الممكن أنك قد دخلته... لكن صدقني هو ليس كما يبدو، القبر عالم آخر لا ينفتح إلا للأموات فقط... لكي تدخله لا بد لك من تذكرة، والتذكرة لا بد أن تحصل عليها بثمن، والثمن هو جسدك، تدفع جسدك مقابل الدخول لهذا العالم، فهذا عالم للأرواح فقط، فعندما تخرج الروح تظل تحوم حول الجسد تتبعه كظله أينما طرحوه، حتى يدخل القبر.

قلت لك إن جسدك هو التذكرة التي لأجلها ينفتح لك هذا العالم العجيب، فمجرد أن يدخل جسدك إلى القبر، حتى تصبح روحك حرة، لا أعرف من أين يأتي لي هذا الكلام، ولكني أصبحت فجأة أفهمه.

تصدق بما تبقى مني
أو تصدق بساقي المبتورة
وخذ الثانية.. ولا تقلق..
فوا الله إني لمسرورة
فلم أعُد في حاجةٍ لأي منهما
فالأرواح يا أبي لا تمشي على سيقان

من أغاني الطور الأول

الفصل الثاني

(أنت لا تعيش على الأرض، أنت فقط تمر بها)

8

في مدينة القمر... وفي المدرسة الكائنة فيها، أثلجت نهايات الجدران بلونها العاجي فلم يبق غير اكتسائها بذرات الصقيع الأبيض، كل شيء في محيط رؤيتي يظهر باللون الأبيض ودرجاته، رؤيتي غير واضحة كأنني أرى من خلف عدسات سميكة مُضبَّبة، كأنني خرجتُ من وصلة سُبات عميق للتو، أجلس على تَّختةٍ بيضاء، إن ابتعدت عنها أراها تقترب إلى اللون الرمادي، جدران الفصل أيضًا بيضاء تميل إلى اللون الوردي اليانع إذا ما أمعنت النظر، وأحيانًا يتموج اللونين كموجات الصوت إن قُدر لي ورأيت موجات الصوت يومًا.

مالت عليَّ زميلتي وجارتي في التختة وقالت: «**ألم تنته دروس اليوم**»؟ أجبتهُا بشبه يقين وسابق معرفة: «**يتبقى درس الموسيقى**»، ولا أعرف إن كانت هذه معلومة أعرفها أم أمنية طرأت بفكري للتو.

دخل أستاذ الموسيقى الذي طالما عرفته، ولكن لا أتذكر أين ولا متى عرفته! حتى إنني لا أتذكره هو بشخصه، ولكنني أذكر الأُلفة التي تصحبه حينما أراه، غالبًا هو يقبع هناك في أحد دهاليز عقلي الصامدة أو على أحد أرفف قلبي المُترِبة، لا أعرف! شدا بآلةٍ

موسيقيةٍ كنت قد رأيتها من قبل، لحنٍ سمعته من قبل، رقصت أناملي على التَّختة، بينما رقصت قدماي دقًّا على الأرض داكنة البياض، يا الله! كم أحب هذا العازف وهذه المعزوفة، أصابعي تتلاعب مُحاكية إيقاعات اللحن، اقترب العازف مني وأمسك بيدي وأعطاني الآلة طالبًا مني أن أعزف عليها، وعزفت... ثم عزفت... حتى فارت السعادة مني كما يفور الحليب من فوق نار هادئة، وقف زملائي بزيهم المُوحد ذي اللون الأخضر المُبهج يتمايلون على إيقاعاتي، الجميع سعيد، وكنت الأسعد بينهم.

مرَ الوقت ولا أعلم كم مر منه؟! لا توجد ساعة ملتصقة إلى جدار، ولا حتى أخرى تزين يد أحدهم، الوقت فقدَ سيفه فلم يعد بيده ما يقطع به حناجر السعادة.

هنا كلما جالت في خاطري فكرة وجدتها تتحقق، لا أعلم كيف جئت إلى هنا، ولا أذكر غير أنني كنت أتمنى ارتياد المدرسة، لأجد نفسي في هذه المدرسة وحولي زملائي وأصدقائي الذين يحبونني وأظن أنني أحبهم أيضًا.

انتهت الدروس، أو انتهت رغبتي بها، صعدت وزملائي إلى حافلة لونها مائل للاخضرار المُبهج، انغلق بابها فور استقرار مؤخراتنا على مقاعدها، ثم اهتزت هزات لطيفة كأنما تلاعبنا، وسارت أو طارت... لا أعلم... لتتوقف بعد قليل... أنزلتُ إحدى قدميّ على سلمهِا فتبعتها الأخرى نزولًا، كانت أمي واقفة في شُرفة البيت تلوح لي.

هذا بيتنا... بيت أبي وأبويه... ولكنه قد تغير وتزين وتلون على سابق ألوانه، ولكن بوضوح استرعى انتباهي، أصبح صافيًا بالأبيض وإطاره تلون بالأخضر، بدا المشهد وكأنه لوحة عملاقة لأمي في شُرفتها، فُتح الباب، ودلفتُ إلى الداخل، هناك على بُعد أمتار من الباب وقفت أمي كشجرة نبتت من الأرض... فارجة فرعيها، تنتظر كدرفتي محار تهم لتنغلق على لؤلؤتها... ولكن أمي واقفة هناك فمن إذًا فتح الباب؟!

ألقيتُ بكُلي إليها... ضمت يديها وأحاطت بهما جسدي المتين، ودارت بي دورة كاملة وظلت تكررها، وقدماي لا تلامسان الأرض، حتى شارفت الدورة على الانتهاء ولامست قدماي الأرض، حتى انفجر صوت من خلفنا صوت انهدام زجاج دولاب الأطباق... خرت أجزاؤه كحبيبات صغيرة مُحدثة فرقعة على الأرض، كأنه قُذف بحجر... لم يكن هنالك تبرير لانكسار الزجاج المُفاجئ، دُهشنا من عنف فرقعته بلا سبب، طبطبت أمي على ظهري، حتى هدأت هي، جلبابها الأبيض الناصع وقف منتصبًا كعود خيزران يوشي بسلامة بنيانها الذي كان قد تحطم عند آخر مرة رأيتها، على هذه الأريكة التي تغط في ألوان زاهية، لا يكاد يضاريها زهوة غير طرحتها خضراء اللون التي دورت وجهها الأسمر الصافي الذي بدا أكثر بياضًا ونضارة من ذي قبل، حتى القوسين تحت عينيها مُسحا بممحاة بلا أثر ولا شُبهة أثر، لم أرها صافية كصفائها اليوم.

طبعتُ بشفتي على جبينها التي خبأت منه بواكر التجاعيد قُبْلَةً انقضى الوقت في طباعتها، كأنما التصقت شفتي بجبينها، وفور أن فكت شفتيَّ، حتى أمطرتني شفتيها بقبلات في كل موضع مني يصلح للتقبيل.

أمي وإن كنت إنسانة فلا أنساها وإن تقلب قلبي فلا ينقلب عنها.

صوت هفيف أقدام متبوع بهمس عنيف يأتي من خلفنا، أحدهم يحادث آخر بصوت خافت غير مسموع كما لو كان يأتي من عالم آخر، مكتوم كأنه انكفأ عليه إناء حد من قوته وقلل من وضوحه، وأحجب بعضه عن المسامع، إلا أن الصوت قد خبا بعد قليل من مراعاتنا له.

وعادت الأجواء إلى طبيعتها الساكنة، أشياء تحدث لا تبرير لها، كساقي التي عادت إليَّ ولا أعرف كيف عادت! أو كأنها لم تُقطع من الأساس! ولكنها موجودة وهذا هو الأهم.

فراشات مُلونة لم أرها من قبل، تجري الطفلة خلفها حينًا، وأحيانًا أخرى تتبدل الأدوار وتطير الفراشات كأنها تطاردها، تهيأ لها أنها تطير طيرانًا، وتحلق خلف هذه الفراشات، فاستعر حماسها، واندفع منها صوت قهقهة طفولية طويلة.

كنت وأمي نتنزه كعادتنا حينما اقتربت منا هذه الطفلة وقالت لي أمي أن أذهب معها لنلعب، بينما أمي جلست على العُشبة الخضراء، لعبنا أنا وهي كثيرًا كنا متشابهتين إلى حد كبير، حتى في هذه الندوب على قدمينا، والتي خلفها لنا نصل السكين المستعر ذاته.

التفتت أمي التي لم تتغير جلستها ولكن هناك من انضم إليها، امرأة أخرى ممتلئة، فركت عيني حتى أتبينها... كانت جدتي «زهرة»!

جريت نحوها وارتميت في حضنها، ابتسمت لي وقبلتني، وجلست في حِجرها بينما تتسامر هي وأمي، تذكرت يوم أن حكت لي عن هذه المدينة العجيبة؛ حيث الملاعب التي تعج بألعاب متباينة لا ملل عندها، والملاهي، والحدائق، وبحر شاسع لا غرق فيه، وكل شيء يتمناه أي طفل.

الأطفال هناك لا يكبرون يظلون أطفال، ما يطلبونه يأتي لهم بدون مقابل، ما من مال هناك يُدفع، بها أنهار من شوكولاتة، وأشجار بها فواكه غريبة ولذيذة، وأشجار أخرى غصونها حلوى منعنعة، رقائق البطاطس بكافة أطعمتها ونكهاتها هي أوراق أشجار تنبت فيها، هذه المدينة موجودة على القمر ليست لها بوابات للدخول لكن لها أسوار عالية، لا يستطيع أن يعتليها سوى من خف جسده وأصبح قادرًا على التحليق، حينها سيعبر أسوار القمر؛ حيث المدينة، وأظن أن هذه هي المدينة، مدينة القمر.

لا أعلم من أين تأتيني هذه الرؤى، ولكني أرى الآن أناسًا غرباء في بيتنا: سيدة ترتدي ملابس بيتية تعد الطعام بالمطبخ، وطفلان يتشاجران عند دولاب الأطباق، هم يعيشون في ذات البيت الذي أعيش فيه مع أمي، لا أعلم كيف! نعم، هو بيتنا الذي كنت فيه مع أمي منذ قليل، هي نفس الجدران... ونفس الأثاث... ولكن كيف؟! وأين أمي؟! هل يعيشون معنا أم نعيش نحن معهم؟! فأنا لا أعرفهم، أم أننا نعيش معًا في ذات البيت، ولكنَّ كلًّا منا له عالمه الذي لا يتقابل مع العالم الآخر، ولسبب ما أرى العالمين معًا! ما هذا الجنون؟! الأمر مُعقد.

أرى فتى يقف عاقدًا حاجبيه بغضب، كان ينظر إلى أخته الصغيرة التي علت صيحاتها الممزوجة بدمعات اصطنعتها، بينما يده تدفعها بعيدًا والأخرى تحاول أن تسحب من بين يديها قارورة العطر التي كانت قد أطبقت عليها باستماتة، وبعد مُعافرة انزلقت من بين أصابعها، فأحكم قبضته على القارورة، علت صرخاتها أكثر حتى أصبح لها دوي، وطرقت بأقدامها الأرض بعنف، كأنه نداء من نوع ما، تستنجد بأمها التي تجلى صوتها فوق صوت الجلبة القائمة متوعدة، لينتقم الفتى من أخته بقذف القارورة بعيدًا حتى التقطها دولاب الأطباق، فأحدثت فرقعة مدوية، تناثرت أجزاء الزجاج على الأرض اللامعة، فأحدثت صوتًا مدويًّا الأمر الذي أقنع الأم بوجوب تدخلها.

فخرجت الأم تسبقها أنفاسها اللاهثة، منفزعة، لتجد هذه الجريمة، ويقف بجانبها الجناة، صرخت في وجهه الذي وجم وبرقت عينيه، بينما تلعثم لسانه محاولًا تبرير ما حدث لفرسة النهر الموشكة على قضم رأسه:

- **والله يا أمي لم أقصد، فقد كنت أنتزعها من يدها فطارت رغمًا عني إلى دولاب الأطباق.**

قاطعته «رنا» الصغيرة اللئيمة التي تقترب رأسها من الأرض:

- **هو من قذفها يا أمي وأنا كنت أرتب التسريحة وزجاجات العطر عليها ولم أفعل شيئًا.**

تمتمت الأم بشتائم غير مُفصحة، وأخذت تلعن اليوم الذي استأجروا فيه هذه الشقة، فهي نحس عليهم منذ وطأتها أقدامهم، فمن أجل توفير حفنة من الجنيهات، أصر زوجها على استئجارها، بالرغم من سمعتها السيئة، وجلبها الشؤم على أصحابها الذين سبقوهم في سُكنتها:

- **والله لأعاقبكما، وانتظرا عقابكما حال وصول أبيكما، يا عديمي الأدب.**

مر وقت ليس بالقليل، حتى اندفع باب الشقة مرتطمًا بالحائط، ودلف «وليد» أصابعه كانت مُعلقة بعدة أكياس بلاستيكية سوداء، بها برتقال وطماطم وخيار، وكيس آخر بلون مختلف به لحم طازج، وضعها على الطاولة ورمى المفاتيح بجوارها، أسرعت «رنا» بالجري نحوه وهي تصيح لتُعلم الغافل واللاهي بقدوم أبيها:

- **بابا! بابا! أتى أبي.**

تلفتت حولها، واسترقت نظرة نحو الأبواب المغلقة، وخفضت من صوتها ثم قالت:

- **كان «عبد الرحمن» يلعب بزجاجات العطر وقذف إحداها فكسر زجاج دولاب الأطباق.**

خرجت هبه من المطبخ، باسمة لزوجها العائد من عمله، التقطت الأكياس من الطاولة، مجاوبة عن تساؤل «وليد» عما حدث:

- **لا أعرف ما الذي يحدث؟ عبد الرحمن أصبح عنيفًا ويحتاج معاملة خاصة، وما عدت أعرف ماذا أفعل معه.**
- **أين هو؟**
- **عندما سمع صوتك، دخل إلى الحمام، تعامل أنت معه.**

مضى «وليد» حتى باب المرحاض، ودق الباب برفق:

- **أخرج يا «عبده» ولا تخف، لن أضربك فاخرج مطمئنًا.**
- **لم أفعل شيئًا يا أبي، رنا هي التي تفتعل مضايقتي دائمًا، وتصر على معاداتي.**
- **أخرج ولنتحدث كما يتحدث الرجال.**

جلسَ وليد على كرسي ليس ببعيد عن باب المرحاض الذي انفلج عن عبد الرحمن، والذي بدا مضطربًا:

- **تعال يا حبيبي! لا تخف.**

اقترب «عبد الرحمن» من أبيه، ليطمئنه الأخير ألا يخف:

- **يا بني، أيصح أن تتلف مقتنياتنا، حتى لا يبقى عندنا شيء جميل في البيت، حتى إن زارك أصدقاؤك يجدوا البيت خاويًا وفقيرًا، وأختك الصغيرة هي نصف الروح فلا تفرط في نصف روحك، ولا تُبكِها ثانية وإلا ما سامحتك.**
- **سامحني يا أبي لن أفعلها ثانية.**

طبطب عليه، ولثم جبينه، ونادى على «هبة» وسألها إذا كان الغذاء جاهز، فجاوبته دقائق ويصبح الطعام على الطاولة.

بعد الغذاء، اتجه الطفلان إلى غرفة الألعاب، وقعد «وليد» مع «هبة» على الكنبة؛ حيث أخبرته أن هذه الشقة ثقيلة على نفسها، ويحدث بها أشياء غريبة لا تفسير لها ثم تابعت حديثها:

- **فأمس مثلًا فتحت باب الشقة لأُخرج القمامة إلى الصندوق، وأخرجتها ودخلت إلى البيت وأغلقت الباب، وأغلقته أيضًا بالترباس، وبعد نصف ساعة بينما أنا بالمطبخ، وجدت وكأنما شعاع نور في الصالة وتيار هواء مصدره الباب، أسرعت إلى الباب فوجدته مفتوحًا، ولم يكن أحد غيري بالبيت، أصبحت أرتاب وأخاف كثيرًا.**

- **لعلك خُيل إليك أنك أغلقته، اطمئني.**
- **لا يا «وليد» أنا متأكدة مما أقوله.**
- **وما العمل يا «هبة»؟!**
- **لا شيء، سوى أن نعمل على أن نجد بيتًا آخر غير هذا، فأنا غير مرتاحة هنا، وصاحب البيت هذا غريب وأنا مرتابة منه أيضًا.**
- **وما به صاحب البيت؟!**
- **قلما يخرج من شقته، وكلما خرج لا يكترث لأحد ولا يسلم على أحد، كأنه مجنون، فأنا أخافه.**
- **لا تخافي إنه رجل طيب، وما مر به ليس بالقليل.**

في اليوم التالي.

بالمطبخ، تتصاعد الأدخنة الشفافة صاحبة الروائح النفاذة، رائحة لحم يطيب في مرقه، كشفت غطاء إناء يغلي على النار نضح على الفور، دفقة أدخنة ساخنة اندفعت دفعة واحدة، لتلهب وجهها، فرمته من يدها ليرن على الأرض مُحدثًا عدة موجات صوتية.

التقطتِ الغطاء من الأرض ووضعتْه بجانب حوض الغسيل، فتحتْ دولاب المطبخ أمسكتْ برطمان الملح لتجده فارغًا، تأففت، وهدأتِ النار تحت الإناء، وارتدت إسدال الصلاة وخرجت لتشتري الملح من البقال المقابل للبيت، وعند البقال قالت:

- **السلام عليكم.**

ردت زوجة البقال العجوز الجالسة على مقعد خرجت أردافها عن إطاره:

- **وعليكم السلام، كيف الحال يا أم عبد الرحمن؟**
- **الحمد لله يا حاجة! أريد كيس ملح.**
- **بالداخل يا حبيبتي، أمامك مباشرة، على الرف الأيمن.**

التقطت كيس الملح، وتركت خمسة جنيهات في يدها، فقالت لها:

- **خلي عنك.**
- **شكرًا.**

دعتها السيدة بأن تجلس معها، فقبلت وجلست إلى جوارها، بدأت تحادثها فقد كانت تجيد هذه الصنعة، تتطرق إلى مواضيع شتى، حتى وصل الحديث إلى البيت وقصة أصحابه فقالت لها بعد أن ترحمت على الحاجة «زهرة» وزوجها:

- **هذا البيت كانت تعيش به الحاجة «زهرة» وزوجها، وكان لهما ولدان «سعيد» و«سمير»، وسمير هذا هو الذي أجر لكم الشقة، و«سعيد» مات منذ شهر تقريبًا، تم إعدامه في السجن لقتله هيثم ابن أخيه.**
- **وأين زوجة «سمير»؟**

- **«ثريا».. تركت البيت، ويقولون إن «سمير» طلقها لرفقتها شاب يصغرها... اللهم استر على بناتنا وبنات المسلمين.**
- **مأساة! هذا البيت مأساة كبيرة.**

قالت «هبة» هذه الجملة وهمت بالوقوف لإنهاء هذا الحديث الذي لم تحبه، وانصرفت وعادت إلى البيت. أضافت الملح إلى أكلتها غير المنتهية، ثم سمعت صوت قهقهة عالية، كضحكات طفلة، خرجت تتفقد البيت، هي تعلم جيدًا أنه ما من أحد معها بالبيت، ولن تُكذب أذنيها أبدًا.

قهقهات ضحكاتي التي تخرج من أعماقي تهز الأرجاء، أمي تلعب معي، تطاردني وأنا أختبئ خلف الستائر، أكتم ضحكاتي، بينما تقبض عليَّ أمي وهي تقول: «**وجدتك**».

اهتز قلبانا من الضحك حتى أصبح التقاط الأنفاس له مشقة مُحببة، جلسنا على أريكة مزركشة بألوان فاقعة أراها لأول مرة، كانت تقف على طرف لساني كلمات وأسئلة كثيرة، ولكن قبيل النطق بها تذوب كما تذوب حبات السكر في الفم.

رائحة لحم مسلوق ومرق هبت فجأة على أنفي، أخبرت أمي بأنني أشتم الرائحة، ابتسمت ودخلت المطبخ وخرجت بعد ثوان تحمل طبقًا عميقًا به ثلاث قطع لحم غارقة في المرق، كما لو

كانت ثلاث قمم لجبال تخرج من سطح البحر، الرائحة هي نفس التي شممتها منذ قليل، أكلتُ الثلاث قطع وشربت المرق الساخن، طعمها لذيذ، كأنها خرجت من على النار لتوها، بالرغم من أنني لم ألحظ أن أمي دخلت المطبخ قبل ذلك تُجهز أو تُعد طعامًا.

كل يوم وكل صباح أصحو باكرًا
أحرث أرضي
أروي أرضي
أزرع أرضي
فتنبت أرضي
وتنمو أشجار أرضي
وتثمر أشجار أرضي
فتفرحني أرضي
وعند الحصاد أخبروني أن أرضي
أرض ملك الحاكم
والحصاد ملك الحاكم
عن خيبة أمل الحرث

من أغاني الطور الأول

9

«نفيسة»! لا أعلم لِمَ داهمت فكري فجأة؟! فأنا لا أود أن أتذكرها أو يمس فِكري صورتها المقيتة، ولكن فضولي تنامي داخلي، كيف هي؟ أتُرَى «عبده» أمين الشرطة قد نجح في الزج بها في السجن؟ أتراهم شنقوها؟

ضباب يحجب الرؤية، الصورة بعيدة ولكنها تتضح ببطء، سيدات يجلسن على الأرض بعضهن افترشن وسائد أرختها ثقل مؤخرتهن التي طُبعت عليها، كما يُطبع كف طفل في الصلصال، الغرفة واسعة كئيبة، جدتي نفيسة جلست في زاوية مقرفصة على بعضها، سقطت رأسها بين ركبتيها، الهم يطوقها، رفعت رأسها ببطء لينكشف وجهها الذي تطبق ككرة من ورق كورتها يد محاسب أخطأ، خطاط الزمن خط خطوطه بسنه الحاد، اقتربت منها إحداهن:

- **روقي بالك يا أم «حمادة»، أزيحي الهم الذي كلف وجهك وجسدك الكثير.**

تنهدت كأنما تنفث نارًا:

- **وكيف يتركني الهم يا عزيزتي، ومن أين يأتي روقان البال، وحيطان السجن باردة، وثقل الهم والخذلان أبرد وأقسى!**
- **مضت خمس سنوات ولم أر شفاهك تنفرج عن ابتسامة، رفقًا بنفسك وجسدك الذي أنحله الغم.**
- **ما يحز بنفسي أن ابني الوحيد لم يعد يأت لزيارتي، سنوات مرت ولم أره، كأن نفسه وجدت راحتها في سجني، والتخلص مني لاقي استحسانه... أين هو ابني الآن! لقد تركني أتعفن هنا.. هذا الخسيس... قليل الأصل.**
- **لعل أشغاله منعته، فأنت تعرفين الدنيا تلهي.**

نظرت إليها بامتعاض:

- **وصل لي بأنه تزوج وأنجب أيضًا ابنة.**

تقول في سرها «**هذا كله من عملك الأسود**» ثم تابعت تقول لها متصنعة مواساتها:

- **لا تحزني يا عزيزتي، فالفرج من عند الله وسيأتي لا محالة، وأنتِ امرأة مؤمنة، ولم تأذي غير القليل من الناس الأبرياء.**

نظرت إليها شزرًا كأنما شعرت بأنها تستخف وتستهزئ بها:

- **تستهزئين بي يا ابنة العواهر.**

وقامت تمسك برأسها، وتسحب طرحتها مختلطة بشعيرات خلعتها بأصابعها لتصرخ الأخرى وتعم الفوضى، ويكثر ضجيج ما سمعته هذه الجدران المقيتة.

ثم مُحيت الصورة تدريجيًّا كأنما محتها ممحاة طفلة ترسم على ورقة، واندثر الحوار، وذبل، لتنبت صورة جديدة كنت أسأل نفسي عنها أيضًا.

ضحكات «حمادة» التي تأتي مع حشرجة من حلقه، سببتها له ابنته الصغيرة التي كانت تضحك بصوت عالٍ، بهذه الطريقة قد انغرس بقلبه حبها، لمثل هذه الضحكات خلق الحب، في ذات البيت، الذي رأت جدرانه عذاباتي، ترن ضحكات الطفلة فرحًا، جرت الطفلة وحاصرها «حمادة» عند الجدار، جلست على الأرض وصوت ضحكاتها يتخبط بين الجدران يملأ صداه البيت، وكان «حمادة» يفتح فمه مُقلدًا فم الأسد ومُحاكيًا صوته، مُلاعبًا إياها وكأنه سيأكلها، فهي لا تعلم أنه قد ابتلع طفلة بالفعل قبل ذلك، حاصرني وابتلعني بينما كنت أدق الأرض بقدمي وأدفع الجدار بظهري لعله ينشق ويبتلعني لأهرب منه، فهذا الجدار بالتأكيد كان ألين وأحن عليَّ منه.

«سناء» التي قعدت على ذات الكنبة التي كنت قد قُيدتُ فيها، مُبتسمة للعب زوجها مع ابنتها الصغيرة، تخلط ورق التبغ مع الحشيش وتلفهم بورق «بفرة» لتصنع سيجارة جاهزة لشفتي أي

شقي قادر على دفع ثمنها، تراصت السجائر التي بطرخت بعضها، وشكلت منها هرمًا، الأمر الذي استرعى اهتمام «حمادة» فقال:

- **يا سيدتي ما بال هذه السجائر متباينة الأحجام! بعضها وكأنه قد أحبله الحشيش، والبعض الآخر كما لو التصقت بطنه في ظهره، اضبطي يدك أريدها ميزانًا حساسًا، فزبائننا دائمًا ما يطمعون بالمكتنزة الممتلئة بالحشيش، ويقلبون بالسجائر، فإن وجدوا بعضها قد امتلأت والأخريات لا، فسيتصيدونها، ويتركون البقية ينفك عنها الورق فتتلف.**

فردت بعدما تبدل وجهها وارتسم العدد ١١١ بين حاجبيها:

- **إذا لم يعجبك عملي فتعال أنت واعمل، خيبك الله! فلم تعد نافعًا إلا باللعب مع البنت فقط.**

تحامل على غضبه وقال لها:

- **قبحك الله من امرأة قذرة! لا أعرف كيف تزوجتكِ! تسألني نفسي هذا السؤال كل يوم، زيجة التعاسة والفقر.**

كان ردها ليس بالكلام هذه المرة بل حركة بذيئة بيدها، وتبعها لسانها يتمتم بشتائم بذيئة، جن جنونه فهجم عليها وتناولها من شعرها رافعًا رأسها بينما انهال كفه بالصفعات على خديها وأنفها وشفتيها بلا نظام، لم تستطع أن تفتح عينيها من تواتر الضربات، فرفعت ذراعيها لتتقي ضرباته، وإن كانت تقتنص لنفسها ضربة كلما حانت

لها فرصة، حتى سكن يلتقط أنفاسه المتقطعة، ويُريح يديه، ثم تركها تتأوه وتغمغم ودخل إلى المرحاض فضرب الباب خلفه بعنف.

بعد قليل دُق الباب ثلاث دقات بنغمة يعرفها ساكني البيت، تورد وجه «سناء» وتبدل عن حالته، ونسيت ما كان من أمر الصفعات والعراك الأخير، كانت تعلم من بالباب، الدقات لعزيز، هرعت وفتحت الباب، تلاقت عيناها بعيني الطارق، أغمستها بابتسامة غاوية، تكلمت عيناهما بينما هو يعض على شفته السفلية ويسبل عينيه ثم أردف قائلًا:

- **اللطخ موجود؟**

قالت باشمئزاز وكره:

- **نعم! أزاله الله من الوجود! قل آمين.**

صاح كمن نفذ صبره يمط في الكلمة مطًا:

- **آآمين..**

حشر كتفه بين حلق الباب وصدرها الذي كان ما زال يسد فتحة الباب، جلس «رضا» على الكنبة متكئًا، حتى خرج «حمادة» من المرحاض يده تقطر ماء، عاجله «رضا» قائلًا:

- **شُفيتُم يا صاحبي.**
- **حبيبي! كيف الحال؟**
- **الحال على أكمل حال.**

جلس إلى جواره، وأمامهما على كرسي من البلاستيك جلست «سناء»، أخرج سيجارتين من جيب قميصه، لم يكن لديه غيرهما، وأشعل إحداهما ثم أشعل منها الأخرى مناولًا صديقه، وَبَّخَتهما «سناء» قائلة:

- **الكيف مُناولة يا رجال.**

هرع «رضا» وأشعل سيجارة من علبة «حمادة» الملقاة على الكنبة، وقام فانحنى أمامها يقدمها لها:

- **أفخر سيجارة لأم «رشا».**

ابتسمت والتقطت السيجارة من يده بسرعة، ليعود إلى مكانه إلى جوار «حمادة» الذي طلب منها أن تقوم لعمل الشاي، سرعان ما تعبأ المكان بالدخان حتى بدا أنه يحجب الرؤية، ظهرت لهما «رشا» فجأة، التي لم تكن تسعل لاعتياد صدرها على سحب الدخان، ليلتقطها «رضا» في أحضانه، ويخرج لها قطعة شوكولاتة من جيبه، لتطبع هي بدورها قبلة على خده مكافأة له، ثم تتركه وتمضي إلى غرفتها حيث الألعاب، فقد خصصوا لها غرفة احتفظت فيها بألعابها وعرائسها؛ حيث أُزيح الدولاب إلى جدار آخر ليظهر باب الغرفة السرية التي كانت تُستغل في إخفاء الضحايا، وتصبح غرفة الصغيرة «رشا».

فلقد تغير نشاط «حمادة» بعد سجن أمه وأصبح يتاجر في السجائر بكافة أنواعها، المشروعة وغير المشروعة، ويسوِّق للمشروع الجديد صديقه «رضا»، أما زوجته «سناء» فتساعده في إعداد السجائر الجاهزة للحرق بشفاه زبائنهم التعساء.

تحادثا عن تجارتهما فقد أصبح لهما مبلغ كبير عند أحد الزبائن الذي يماطل في دفعه، سأله «حمادة» هل حصَّل الدَين من الزبون أو حتى جزء منه، فأخبره بأنه تعارك معه وضربه بمطواة استلزم جرحها سبع غرز في مؤخرته، كان «رضا» ضخم الجثة يتورد وجهه، له شارب منتظم، وذقن كثيفة على الطراز الحديث، يساير كل ما هو حديث في لباسه، ويعتني بنفسه، به غلظة لا يخفيها، قال له «حمادة» متسائلًا:

- **كان من الأصوب التعامل معه بلين حتى نأخذ مالنا، فغلظتك هذه يا صاحبي تخسرنا زبائنا.**

فقال في سره «**حماقتك هذه هي ما أتصبر بها على مصاحبتك، فلولا هذه الماكينة الأنثوية التي هي خسارة فيك لدوست رقبتك بقدمي، ولكن هانت، سرعان ما أجمع الأموال وآخذ ما لي عندك وأمضي**» ثم خاطبه بحزم:

- **الاتفاق أنك تصنع فقط، أما السوق والزبائن فمن اختصاصي، فلا بد من حين لآخر أن تبدي لبعض الزبائن المتقاعسين شيئًا من الحزم حتى لا يتمادوا.**

أَلانَ «حمادة» حديثه، فهو يعرف أنه بدون «رضا» وفتوته ما نجح مشروعه وتجارته:

- **أنا أخاف عليك يا صديق، أن يؤذيك أحدهم، وبالأخص من تخط مطواتك بأجسادهم.**

أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- **أن تموت ديناصورًا، ولكن يبقى اسمك مرادفًا للقوة ويخلد ذكرك بين من لم يروك، أفضل من أن تعيش صرصورًا تدوسك الأقدام ولا تذكرك غير النعال.**

كانت هذه رسالة قالها يقصد بها ما يقصد، ومن بعدها خلد المكان في صمت لبرهة، حتى عاد وانفك على أحاديث شتى.

همهمات بالداخل، مع ضحكات خافتة يُخرسها مخافة أن تُفتضَح، سألها وذراعه يلتف حول خصرها العاري البض:

- **متى تأتي «رشا» من المدرسة؟**
- **عند الواحدة ظهرًا.**

ثم نظرت إليه نظرة راجية، وقالت:

- **متى نعيش معًا أنا وأنت وابنتنا، طفح الكيل بعيشتي مع هذا القذر، أكاد أتقيأ من رائحة أنفاسه.**
- **قريبًا جدًّا يا «سناء»، سنجتمع سويًّا، ما بقي غير دقة واحدة ونعيش أنا وأنت وابنتنا «رشا»، فلا تحملي همًّا، أنا أخطط لكل شيء، بعد أن أجمع أموالي المبعثرة بالسوق، نهرب ونعيش بعيدًا.**
- **يا ليت يا حبيبي! فلم أعد أطيق البُعد عنك.**

لم يكن يعلما أن هناك آذانًا كانت تتسمع الحوار الدائر، آذان الزوج المفجوع، كانت تهبط عليه هذه الكلمات كما الصواعق على يابس العشب فتشعله، أخرج مطواة من جيبه وضرب الباب الموارب، لتتفاجأ الأنفاس المستكينة، وتُصعق القلوب الآمنة، أمسكت «سناء» بالملاءة لتستر ما قد فُضح، حتى اندفع «حمادة» نحوهما شاهرًا مطواته:

- **كيف؟! زوجتي وصديقي الوحيد! والله لأذبحكما ولا أبالي.**

هم بالانقضاض عليهما، ولكن «رضا» عاجله بطبق كبير به فاكهة كان بجواره، ليرتطم بوجهه، فطرحته الضربة أرضًا، بعدما اصطدم وجهه بمسمار كان في حلق الباب أراق دمه، ألقى «رضا» بجسده المتين على «حمادة» الذي لم يكن لملم نفسه بعد، وكال له الضربات بقبضته الصلبة على وجهه ورأسه التي انزلقت عبرها الدماء عابرة بضع الشعيرات المتبقية لتستقر على الأرض، غمغم «حمادة» بكلمات بذيئة، بينما قبضتي «رضا» تعزفان على وجهه، حتى أنهكت قواه فقام عنه بعد أن اطمئن إلى أنه لا يتحرك.

سألته «سناء» إن كان قد مات، فجسه بيده على وريد رقبته، وقال لها بأنه ما زالت تتراقص أنفاسه، فأردفت قائلة وهي ترتدي ملابسها:

- **وما العمل الآن؟!**
- **لا أعرف.**

تهلل وجهها فجأة وكأنما وجد الخلاص وقالت:

- **نربطه بالغرفة الداخلية ونزيح الدولاب كما كان حتى يموت ويتعفن، ونأخذ ابنتنا فور عودتها من المدرسة، ونهرب بعيدًا في مكان لا يعرفنا فيه أحد، ونعيش سويًّا عيشة الهناء والسرور.**

شهق كأنما يسحب هواء الغرفة إلى داخله، وزفر كأنه يعيده مرة أخرى ثم قال:

- **نعم، سنضعه بالغرفة الداخلية ولكن ليس على أرضيتها، بل سندفنه فيها، وستقولين إنه سافر للعمل بالخارج، وبعد أن نضبط أمورنا سنقول إنه طلقك ثم نتزوج ونترك المكان، حتى لا تكون هناك شبهة فينا من أي ناحية.**

لاقى هذا الاقتراح استحسانها، إن تركاه هنا ومات فلا بد أن تكتشف جريمتهما وسيكون هروبهما معًا تأكيدًا عليها، ولكنَّ اختفاءه بوجودهما سيكون الأصوب.

قاما بحمله، ليخرجا به من الغرفة، ليجدا أمامهما «رشا»، قد جاءت، صرخت حينما رأت أباها محمولًا وغارقًا بدمائه عدة صرخات حتى أفاقت «سناء» من المفاجأة، لتترك قدما «حمادة» على الأرض وتغلق فم «رشا» بكفها وهي تهدئها، باب البيت لم تغلقه «رشا» بعد دخولها، الباب يطل على الشارع الذي دوت فيه الصرخات، ليتجمع الجيران عند الباب، وفي لحظات أصبح بعضهم داخل

البيت، فلحق «رضا» من شتات نفسه وقال مخاطبًا رجلين قد اقتربا:

- ساعدونا يا رجال، لقد ضربه أحدهم وألقوه أمام البيت ينازع.

فنادى أحد الرجلين على ابنه وقال له بأن يأتي بمفاتيح العربة ليذهبا به إلى المستشفى، نظرات رعب بودلت بين «رضا» و«سناء»، إلا أنهما أخفيا ذلك وقالا:

- أسرعوا، الرجل تُصَفَّى دمه.

بينما تعالت صرخات «سناء» تحفر أخدودًا وسط الجلبة، مع بكاء «رشا» الصغيرة، وتأثر «رضا» البالغ والظاهر على قسماته المبتلة باللهفة والخوف على صاحبه.

وفي المستشفى، وقفا بعيدًا عن سرير الراقد الدامي ترتعش أوصالهما، حتى جاء أحد الرجلين من الجيران، فأخبرهما أحدهما بما قاله الطبيب، فهو يشتبه بأن الإصابة قد تحرمه من الكلام والحركة إلى الأبد، هذا إن لم تودِ بحياته، نبت لذراعيهما ريش حتى توارى من تحته لحمهما، ورفرفا بالأجنحة الوليدة، حتى طارا من الفرحة، وإن احتبساها سجينة تنتظر أن ينفردا ببعضهما.

مرت الأيام، وتيقن المجرمان بأنهما أفلتا، هذه الجثة الحية، ستبقى حبيسة البيت ذليلة حتى يأتي أجلها الذي سيعملان على الإسراع إليه.

نقلوه حملًا وأدخلوه إلى البيت، وما زالت إيماءات رأسه صارخة ومشيرة نحو الخونة، وضعوه في فراشه، رفع رأسه من على

المخدة، وبرق بعينيه كأنما يريد أن يخبر الحاضرين بما فعلاه، طبطب «رضا» على صدره وقال بلكنة حنونة باطنها التشفي:

- **استرح يا أخي! والله إن قلبي لينفطر على ما أنت فيه.**

«الويل لك يا أحقر من براز الكلاب! أنا من اعتبرتك أخي وأدخلتك بيتي، عقلي لا يعي ما يحدث، كيف لي أن أنتقم وأنا المقيد المشلول لا أتحرك! الكلمات ثقيلة يعجز لساني على حملها، لم أعد أتكلم ولا أتحرك، فكيف يكون الموت إذا ما كانت هذه ستكون حياتي»!

خرج الأصدقاء وبقي «رضا» و«سناء»، وانزوت «رشا» تبكي في ركن، حتى حملها «رضا» وخرج من الغرفة، وبقيت «سناء» إلى جوار «حمادة» تنظر له نظرة تشفٍ وكره، حدقها بنظرة يملؤها الحقد، فلو أسعفته قوته لقطعها بأسنانه هذه الغادرة الخائنة ثم قالت ساخرة:

- **أيام وستموت يا عزيزي، وسأحرص أن أجعل أيامك المتبقية في الدنيا سوداء وسريعة، ولن أترحم عليك، فلم أعد أريد أن أراك، فصوتك وحركتك قد رحمني الله منهما، لم أحبك يومًا، هل تعرف... أنا أحب «رضا» صديقك وهو يحبني؟ وكنا نتجهز للهرب، فحدث ما حدث، فكأنه القدر جاء لمؤازرتي.**

ثم همت بالقيام من جواره، فتأوه وأحدث صوتًا عاليًا، فنهرته وصفعته عدة صفعات على وجهه، واستطردت قائلة:

- **وأيضًا... حتى لا أنسى، «رشا» ليست ابنتك، هي ابنتي أنا و«رضا».**

اخترقت كلماتها قلبه، كرصاصة نفذت من لوح زجاج لتتركه شظايا، تحطم ما كان قد بقي منه، لو انهدم عليه البيت ودكه في الأرض، كقطعة جبن هرستها ملعقة لكان أهون عليه، قالت كلماتها وأغلقت الباب عليه وخرجت، تركته بين حالتين، المغشي عليه والميت.

«**من أين الخلاص يا إلهي؟ وذنوبي قد تخطت كل حد، أعقابك هذا؟! لا أظن أنه عقابك، فأنا أستحق ما هو أكثر، ما هو أشد قسوة، أنا غليظ القلب، دامي اليد، أيكون ذنب ابنة أختي؟ آه يا ابنة أختي، إني والله لأستحق ما هو أقسى وأمر**».

مرت ثلاثة أيام لم يتحرك من مكانه، ولم يشرب، ولم يُطعمه أحد، البيت ساكن، ما من صوت ينم عن حركة منذ أكثر من ثلاثة أيام، يبدو أنهما غيرا خطتهما وتركاه وحيدًا يلقى حتفه ببطء، عيناه ذابلة غلفها ضباب، وجههُ مُصفر، كأنه نبتة بائسة نسي ريها البستاني، أم أن البستاني قد هجر بستانه.

جف حلقه، جفناه ثقلا، طابور نمل يسري في عروقه، لسانه يهذي بكلمات تنبع من سحيق أعماقه.

«**وحدي! كموميا‌ء مُحنطة تنتظر البعث من جديد، يرسل دماغي توسلات إلى أعضائي أن تتحرك، ولكن الجماد جاء من الجمود، الظلام رائع، يتيح لي فرصة التأمل، فرصة أن أنفرد بالندم، سعيد بما يحدث لي، أقسم أني سعيد، لعلها تخفف من أثقالي، اللهم اقتص مني، فأنا الظالم... كيف بصاحب القلب الأسود أن يبيض له قلب**».

تجمع الجيران أمام الباب الذي لم يُفتح بابه منذ أكثر من أسبوعين، النسائم تهب حاملة رائحة كريهة، ليست كرائحة الزبالة التي تعودت عليها أنوفهم، رائحة الموت فواحة وقاسية، قال أحدهم:

- **لنكسر الباب، ونرى.. غالبًا الرائحة تخرج من هنا، ونحن نطرق الباب منذ مدة ولم يفتح أحدهم.**

تساءلت إحدى الواقفات:

- **أرأى أحدكم «سناء» أو ابنتها «رشا».**

فردت امرأة واقفة:

- **لم أر أحدًا يدخل أو يخرج منذ أكثر من عشرة أيام، لا بد وأن مكروهًا قد أصابهم، فهذه الرائحة لا تنم عن خير أبدًا.**

تقدم رجل ممتلئ انتفض شعر صدره من فتحة جلبابه ليعوض عما خسرته رأسه، وقام بدق الباب بكفيه، ليقول له أحد الحاضرين:

- **يا أبا أحمد لا يوجد أحد بالداخل.**

فرجع إلى الخلف خطوات، ثم قذف بكتفه على الباب، ليطرحه صريعًا، دخلوا جميعًا إلى البيت، البيت ساكن كسكون القبر، الرائحة أكثر قوة في الداخل، دخلوا الغرفة المغلقة، الرائحة تنفذ إلى معدتهم، حتى أفرغها بعضهم على الأرض.

كائنات دقيقة تعبث بجسد «حمادة» الذي قد ازرق وضاعت ملامحه القديمة، مات «حمادة» جوعًا وعطشًا.

10

حدائق مترامية تزاحمها أشجار التوت التي انحنت لتشرب من بركة صغيرة، ماؤها صافٍ يتألق قاعه، أسماك ملونة منقوشة تظهر جلية، والنخيل وما أروع أنواعه! بعضه اخترق السحاب كَسَهْم منغرس فيها، تعترش في جنباتها الفل والياسمين، العنب الملون تتدلى قطوفه، تحتار مُخيلتي بين الزقزقة والتغريد والهديل، هي الشوارع نفسها أعرفها، ولكن تغيرت إلى النقيض، الخضرة أينعت في كل مكان، جداول تنساب بين الأشجار، تشابكت أصابعي بأصابع أمي.

- **ما أروع المكان هنا يا أمي! البلدة والشوارع تغيرت كثيرًا، وكأنها ليست هي.**
- **نعم يا حبيبتي! البلدة تغيرت عندما تغيرنا، حينما خلعنا أجسادنا.**

استغربت كلماتها وارتسم التساؤل على وجهي عن قصدها:

- **كيف خلعنا أجسادنا؟!**

لم ترد أمي وكأنها لم تسمع سؤالي؛ إذ تجهم وجهها، وانطفأ بريق عينيها فجأة، ووقفت شاخصة ترمق رجلًا يمشي مستكينًا مطأطئَ الرأس في خطوات مستقيمة كأنما يمشي على خط مرسوم له، سرعان ما انتقلت إلى وجهي نفس الأعراض، حينما وجدت أن السائر في الطريق الموازي لنا –يفصلنا عنه جدول ماء– هو أبي، صرخت بأعلى صوت: «**أبي**».

لم تتباطأ خطواته حتى، ولم يلتفت إليّ، صرخت عليه وأفلت يدي من يد أمي واقتربت من الجدول، بينما هو سائر في طريقه على خطه المستقيم، وبعد إلحاح صرخاتي عليه التفت ونظر إليّ نظرة بائسة حملت أثقالًا، فأشرت إليه بيدي رافعة إياها، فعاد رأسه كما كانت بينما خطواته لم تتوقف، واستمر غير مكترث لمناداتي، وأمي واقفة في مكانها لم تتحرك كأنها شجرة، اغرورقت عيناها بالدموع، ولكنها لم تنبس، وهو ما زالت خطواته ثابتة، حتى غاب في ضباب عند نهاية البصر، اهتز قلبي وسبقتني خطواتي إلى أحضان أمي، وبكيت واختلط نحيبي بهديل حمامات قد اقتربت.

نباح كلب يتعالى، يأتي مسرعًا باتجاهنا، الخوف تملكني وهممت أن أجري أو أختبئ خلف أمي التي وقفت باسمة للكلب الذي يقترب، اقترب منا وتمسح في عباءتها البيضاء، بينما انحنت أمي على رأسه وطبطبت بيدها وابتسمت له. وكأنها تعرفه جيدًا، وبدا لي أنه يبتسم لها أيضًا، ثم تركنا وجرى يلعب مع أقرانه في الحديقة الشاسعة.

عدنا إلى البيت، تمزقت خيوط تعلقت بها فرحتي برؤيته، كيف لم يكترث لي، كنت كل أحبابه كخلطة سرية امتزجت فيها كل دنياه، أذكر يوم كنت معه بالسجن، أذكر كيف تصلب وأغشي عليه، موضع دموعه على جبيني ما زال دافئًا، سمعت اهتزاز دقات قلبه حينما ألصقت وجهي بصدره... آهٍ يا أبي! كيف مضيت وكأنك لا تعرفني! كيف أنكرتني عيناك؟ كيف!

الحياة صافية لا يعكرها منغص، البيت والناس والجيران والشوارع وكل شيء أصبح ودودًا وجميلًا، وكأن الدنيا تبدلت، وكأن الحياة حنثت بعهد العذاب معي، لا غل لا حقد لا ثأر.

أحدهم يطرق الباب طرقًا لطيفًا، ذهبت أمي لتفتح الباب الذي بالرغم من رقة دقاته إلا أنها أصابتنا بالضيق بإلحاحها المضجر الثابت، وعند فتحها الباب شهقت، ووقفت مُتسمرة أمام الطارق، ثابتة لا تتحرك، ثم سمعت صوت نحيبها، دنوت لأستطلع من بالباب ويبكيها، رأيته واقفًا، وكأنه خالي «حمادة» ـ فيما عدا عكازيه ـ هو صورة منه، اقترب يستند على عكازيه، يداه ترتعشان بصورة أشبه بمرض الرعاش، اقترب من أمي وترك عكازيه من تحت إبطيه ليقع عند قدميها ـ وكأنما فعلها عن عمد ـ وانخرط في بكاء لا ينتهي.

كيف؟ لا أعرف! هو خالي «حمادة» فعلًا، ولكن كيف يأتي إلى هنا؟ فهو لا ينتمي إلى هذا العالم.

ولكنه أتى! تقديرٌ لأقدار لا أتفهمها، لا بد أنه استحق دخول هذا العالم وعبور أسوار مدينة القمر.

يا دفقة الحليب من صدر أمها
كيف حال لسانها؟ وكيف يبدو حلقها؟
أسيرتل تراتيل من كتابهِ؟
قل لي يا دفقة الحليب في جوفها
لن تقول.. أنا أعرف أنك لن تقول
ففي الجوف تخرس وتصبح من دمها
امتزجت وانتهيت وفقدت لونك الأبيض
وصار لونك أحمر قاني
يا دفقة الحليب ذات اللون الأحمر القاني

من أغاني الطور الأول

11

شَمَرت أكمام جلبابها وأطلت منه يدين ابيضتا من المياه، انحنت تمسح بخرقة من قماش درجات السلم المتسخة، تارة تعود للخلف خطوة بخطوة جارفة بخرقتها وساخات الرخام المبتل، وتارة أخرى تعصر الخرقة المشبعة في الدلو، وتكمل، حتى تنبهت إلى صوت أبيها الأجش ينادي عليها من تحت، من الطابق الأول، صدى صوته يرن، بلهجته الصعيدية الفظة:

- **يا «نادية».. أنت يا بنت!**

ترد عليه:

- **نعم يا أبي.**
- **عندما تنتهي من السلم اتجهي على الفور إلى شقة الدكتورة زبيدة.**
- **حاضر.**

قالتها بينما تهلل وجهها المُحمر والمُتعرق، وبدأ لسانها يردد لحنًا بصوت خافت غير مبين، لكنه بدا لحنًا مُبهجًا، ما تبقى من الدرجات بدون تنظيف كان أكثر مما أنجزته، ولكن كلمات أبيها الأخيرة جعلتها تنتهي منها سريعًا.

صعدتْ طابقين، وقفت أمام باب خشبي كبير كُتب على جانبه الأيمن لافتة «أ. د/ قاسم أبو طالب... عميد كلية العلوم... جامعة عين شمس».

عدَّلتْ من جلبابها، ومسحت بأحد كميها وجهها ليلمع كما لمعت رخام درجات السلم منذ قليل، كانت فتاة دون السابعة عشر من عمرها، جميلة إلى حد بعيد، رشيقة القوام، نحاسية البشرة في نقاء وصفاء مُحبب للنفس، وأكثر ما يميزها عينان سوداوتان جميلتان، لهما حور فاتن كظبي المها، إذا أطبقت شفتيها الرقيقتين تحسبها من فاتنات لوحات مشاهير الرسامين، أخرجت خصلة من شعرها فاحم السواد لتظلل على عينها.

دقت الجرس، فُتح الباب كأنما ينتظرها فاتحه خلفه، شاب صغير فتى دون التاسعة عشر من عمره، تبرق عينيه فتوة وشبابًا، تلاقت بسماتهما كأنما كانتا على موعد للتلاقي، سحبها إلى الداخل بحنو لا يخلو من عنف أحبته فيه وأغلق الباب، احتضنها أو احتضنته لا أعرف من بدأ بالأمر منهما، أفلتت من بين ذراعيه اللتين تجمدتا عليها، أخبرته بأن أمه تنتظرها لتساعدها، فقال لها إن أمه بالمطبخ، فتركته ودلفت إلى المطبخ، كانت «نادية» ابنة بواب العمارة التي يقطنها أثرياء وأصحاب مناصب، وتساعد البعض في أعمال المطبخ، وكانت تساعد الدكتورة «زبيدة» في بعض الأحيان، خاصة بعد أن تركتها الخادمة وعادت إلى بلدتها لتتزوج ابن عمها، فاتسع عليها البيت فجأة، وزادت الأعباء على أكتافها.

بدا «سمعان» في وقفته طويل القامة ضخم الجسم، ذا كرش كبيرة مكتنزة، وجهه مستديرًا واضح الملامح، وأنفه كبيرًا استند على شارب فاحم غليظ، تثائب وقعد على كنبة، إلى جواره زوجته وابنتاه: الكبرى «نادية» والصغرى «رقية»، أما الرضيع على ذراع أمه فهو «حسنين»، الذي لو لم يكن قد جاء لظل «سمعان» و«سنية» يحاولان حتى يظفرا بالولد مهما تعددت محاولاتهما فلن يكلا أو يملا.

قالت «سنية» مخاطبة ابنتها الصغيرة «رقية»:

- **جهزي العشاء لأبيك.. أحضري اللحم الذي أحضرته أختك من عند الدكتورة.**

قامت رقية بدون أن تنبس، ومضت دقائق حتى عادت تحمل صينية بها الطعام، وضعتها أمام أبيها، فهم قد سبقوه في الأكل كعادتهم، جمع لقمة كبيرة وحمل فيها قطعة لحم وأخذ في طحنها بسرعة وأصابعه تعد اللقمة التالية ثم سأل «نادية» بغلظة:

- **أأعطتك الدكتورة شيئًا؟**

لم تلتفت لسؤاله، فقد كانت سارحة مع مسلسل تركي في التلفاز، فارتفع صوته باسمها، ففزعت وردت عليه مستفهمة فقال لها:

- **أحادثك فلتنتبهي يا ابنة الشاردة... أأعطتك الدكتورة شيئًا؟**
- **لا يا أبي لم تعطني غير ما يلوكه فمك فقط.**

فتمتم ببضع كلمات بحنق، ثم عاد يطحن في الطعام طحنًا.

مالت «نادية» برأسها، كأنما ثقلت على رقبتها، ثم فجأة، مالت مرة أخرى إلى الأمام منحنية، واندلق من فمها قيئ كأنما انضغط في بطنها، فلم يجد مفرًّا من الهروب إلا فمها، همت تجري بينما هذا السائل الهلامي المقزز ما زال يتسرب من بين يدها التي تحاول كتمه، بينما تتبعها نظرات أبيها وهو يقول:

- **نزلة برد في المعدة.**

و «سنية» لم ترد على تعليقه كأنها لم تسمعه، وعيناها ما زالتا متعلقتين بوجوم بأثر خطوات «نادية» حتى بعد أن اختفت عنهما ظلت شاردة.

في بئر السلم –لا أعلم لِمَا سُمي هذا المكان بهذا الاسم؟ ولكني أعتقد أن من سماه كان ينظر إليه من أعلى، فهو يبدو كالبئر من أعلى، ولعل الإخفاء الذي يطويه علة أخرى للتسمية– وقفا مستتران خلف دورانه الذي يحجبهما عن عين أي صاعد أو نازل، قالت له بينما ترتجف وعيناها تدمعان:

- **أنا خائفة! لو علم أحد.. سيقتلني أبي.**
- **لا تخافي سأحادث أمي اليوم.**
- **وإن لم توافق وأظنها لن توافق أبدًا.**
- **لا تتعجلي الشر.**

- **أقول لك إني مرتعبة، أمي بدأت تشك وأشعر بنظراتها المتوجسة، والكلمات التي تقف في حلقها، ستدفعها إلى مسامعي قريبًا.**
- **إن لم يوافقوا سآخذك وأعقد عليك رغمًا عن الجميع، ويكون الأمر الواقع هو الحل.**

كان خائفًا هو الآخر، ولكنه حاول التماسك أمامها، هو يحبها، وحب الصغار جريء، جريء إلى حد أن يرتكب حماقة لا تُصلحُها سوى إراقة الدماء، أصبحت «نادية» حبلى وهي لا تعرف ولا تعي كيف حدث هذا! كأنما هي كانت منومة، اللهفة والشوق أسكراها وجرى ما جرى، هي تخاف الآن أن تفتضح، والأيام تمر سريعة كأنما تتآمر عليها، وما ينمو في بطنها ينمو سريعًا.

وقف أمامها يتلجلج في الحديث:

- **أسرع يا «سامر» يا بني فليس عندي اليوم كله لك.**

تجمعت الكلمات على لسانه، وأخرجها دفعة واحدة:

- **أنا أريد أن أتزوج.**

ضحكت «زبيدة» كأنما لم تضحك من قبل، وقالت له:

- **عندما تنتهي من الجامعة فسأزوجك أميرة الأميرات.**

قال بحدة وإصرار:

- **لا، أنا أريد أن أتزوج خلال هذا الأسبوع.**

- **ما بك يا فلذة الكبد؟! أهناك زميلة لك تريدها؟ أخبرني من هي ولنفكر سويًّا.**
- **«نادية».**
- **من «نادية»؟**
- **«نادية» ابنة عم «سمعان».**

وقعت الكلمات كحائط تهدم على رأسها:

- **ماذا تقول! أجننت!**
- **إن لم أتزوج «نادية» فسأقتل نفسي.**

استشاطت غضبًا، لكنها هدأت قليلًا عندما وجدت إصراره وانعقاد عزمه على فعل ما يؤذي نفسه فيؤذيها به، وبعد تهديده الذي بدا حقيقيًّا بقتل نفسه قالت له:

- **عندما يعود والدك من المؤتمر نتحدث في هذا الموضوع.**

اعتلاه الغضب، اعتلى رأسه فأصبح ثقلًا يدك رقبته، إن لم يتزوجها فكيف ستسير الأمور! الفتاة حُبلى منه، وهو متيم يلعق التراب التي تدوسه قدماها.

الأيام تمر عليها كالأعوام، أمها قالت لها بشكل مباشر.. «**أخدعك أحدهم وغرر بك؟ حالتك هذه لا تنبئ عن خير، إنما عن عار يستوجب الذبح أو الوأد حية**».

أمسكتها من شعرها ومرغت الأرض به كما تفعل الخرقة المبتلة على الرخام المتسخ، صراخها يعلو، لطمتها على وجهها أن تخرس حتى لا يسمع أبوها صراخها من جلسته أمام العمارة، ورددت أن ما عليها فقط أن تقول اسم الفاعل الدنيء، وبعد ذلك نفكر فيما سنفعله، «نادية» مُصرة على عدم الإدلاء بالاسم، وأمها على أتم الاستعداد لأن تذبحها وتشرب من دمها لو تطلب الأمر حتى تعترف، الأمر أشبه بسحب الكلمات من جاسوس حتى لو تطلب سحب روحه معها.

اشتدت الأم حتى تعرق جبينها، وأنفها صار ينفث زفيرًا ساخنًا، تكيل لها بيديها فوق رأسها تارة، وتقضم كتفها بأسنانها تارة أخرى، تصرخ الفتاة صرخات متتالية تحاول كتمانها على قدر ما تستطيع تحمله من الألم، اندفاع الغضب أنساها أمر كتمان الصراخ، الذي صار يتدحرج حتى أذن «سمعان» الذي جلس في الخارج على بعد أمتار قليلة، تسمع أذنه الصرخات وكأنما هي آتية من بعيد، فما من مبرر أن تخرج صرخات كهذه من بيته الهادئ، حتى تأكد ألا مفر من أن هذا الصراخ يخرج من بيته. دفع الباب الموارب ودخل إلى البيت، الصرخات تأتي من خلف هذا الباب المغلق، دق الباب بكلتا يديه، «**افتحوا الباب! ماذا هناك**»؟ انقطعت الصراخات فور سماع صوته إلا من نحيب متقطع يحاول أن يتماسك.

بداخل الغرفة... لطمت الأم خديها حينما سمعت صوته ودقاته على الباب، ولعنت اليوم، وسودت النهار، مع استمرار الطرق العنيف الذي كاد أن يخلع الباب، قامت ترتجف، مررت ترباس الباب من غمده، تلاقى انفلات الترباس مع ضربة من «سمعان» فانصرع الباب ضاربًا رأس زوجته، التي كانت تفكر عن سبب مقنع تقوله يبرر هذه الجلبة.

باغتتهم «نادية» ومررت جسدها بسرعة بين أمها المُتأوه المُفكرة وبين أبيها المتسائل، وجرت تقفز على السلالم صعودًا، لم يتنبه سمعان لابنته، صرخت زوجته في وجهه فجأة «**الحق ابنتك يا سمعان ستقتل نفسها**»، جرى يردد الكلمة خلف ابنته صعودًا على درجات السلم.. عقله يدور.. لِمَ تقتل نفسها؟! ما الأمر؟! ماذا حدث؟! «**والله ما هذه الحالة إلا حالة عار ستلحق بجبيني إلى يوم الدين**».

صعد إلى السطح، كانت إحدى قدميها خارج السور... صرخ... «**نادية**»! نظرت له بوجهها الدامي الباكي الآسف... وتركت جسدها للجاذبية... جرى حيثما كانت تقف ونظر إلى الأسفل... رأى ابنته هناك مستلقية وجدولًا من دماء يتسرب سائرًا من تحت رأسها... الناس تتجمع، والأم تصرخ... وهو ما زال واقفًا متجمدًا ينظر مذهولًا... الفوضى والصرخات تعم من تحته على الطريق.

بعد مرور عدة أيام.

«سامر» يمشي بلا وجهة يتجهها... لا بوصلة... اتجاهاته الست سواء... شاردًا... يتخبط كتفه بالمارة... يسمع سبابهم له... دون أن يكترث... وجد خطواته تأخذه هنا وهناك، حتى تعبت قدماه، وجد مُنادٍ ينادي من عربة ركاب... «**طنطا... طنطا يا أستاذ**»؟

باغتتهُ قدماه وصعدا به إلى العربة، جلس في أقصى العربة إلى جوار النافذة الأخيرة، المقعد الأخير، لا يجالسه أحد فيه، ركن جسده في الزاوية، أخرج هاتفه وكتب رسالة قصيرة عليه، ثم أخرج من جيبه موسي الحلاقة، فك غلافه، وقطع شريان يده بلا تردد، انفجر الدم كما الصنبور المنفتح الذي انقطع ماؤه ثم عاد فجأة، فأخفى يده الدامية بين المقعد وبدن السيارة... عينه تغرُب كقمر مخسوف... آخر ما رأته قبيل خسوفها وجهًا أسمر لفتاة تدخل من باب العربة، طرحتها مفعمة بألوان ووردات حمراء وزرقاء، ثم انقطع نور عينيه.

صوت هاتفها يرن، رقم «سامر» ابنها المتغيب منذ يومين، ردت بلهفة، لم يكن ابنها هو المتحدث:

- **السلام عليكم... صاحب هذا الهاتف انتحر في عربة في طنطا.. البقاء لله.**

ترك لي أوراقًا كتبها
قال لي: تعلم منها
فيها كتبت عصارة خبراتي
فيها تجاربي وحياتي
فيها كيف تزرع وتحصد في دقائق
فيها كيف تقتل الغول
وسر الصندوق المسحور
ومقادير عمل النقانق
وخريطة كنز مدفون
فيها كل شيء... كل شيء
يجعلك تعيش أميرًا
نبت لذراعي ريش وطرت من الفرحة
ولكني تذكرت أنه نسي أن يعلمني القراءة

من أغاني الطور الأول

12

الأجواء مفعمة برائحة الحزن الذي يتطاير من الأنفاس، دمعات تنحدر على وجهٍ حاد رغمًا عن تماسك كاذب يُبديه، بعدما فاضت عيناه كفنجانين فاضا، جلست أمامه، فستانها الأبيض أضاف إلى وجهها المضيء ضياءً، سماء عينيها مُلبدة بالغيوم، الهزيم يتواصل منهما، الحزن غلف المكان كصوبة زجاجية، أو هكذا تراءى أمام عينيها، صورة الطفلة الصغيرة التي ماتت بعد أسابيع من تخليصها من الخطف، ودفع الفدية الكبيرة التي استدان أبوها بأكثر من نصفها، طفلتهما الوحيدة وكل ما تبقى لهما في الدنيا.

يضع يده على صدره، يشعر كأنما مسمار مثقاب كهربائي يحفر في قلبه، لو لم تجرِ ساعتها، لو انتظرت، لو تمهلت حتى نلحق بها، ما دهستها عربة النقل المسرعة كحصان أهوج غير مُروض فك من حظيرته ليدهس من بطريقه.

السائق هرب ولكن الشرطة قبضت عليه بعد ذلك، كان يتعاطى المخدرات لتعطيه صبرًا وجَلدًا لمواصلة العمل الإضافي لتسديد ديون زواج ابنته، فزواج الأبناء حيوان شره يقضي على أخضر الآباء ويابسهم.

بعدما دفع والدها الفدية المطلوبة من الخاطفين مشددًا على سلامة ابنته، وألا يمسسها أذى، تسلم ابنته بحالة رثة، ملابسها قذرة تيبست بها القذارة، رائحة البول كرائحة مرحاض عمومي، إلا أنه احتضنها، وحملها بعيدًا عن مكان التسليم المتفق عليه، الخاطفون الذين ما إن تسلموا الفدية حتى تبخروا بسيارتهم «اللادا» موديل التسعينات، بينما أدار هو السيارة الذي ارتفع صوت أزيز مُحركها كأنما يزغرد، اندفعت مسرعة تحمل الفرحة للأم المنتظرة تحترق أعصابها.

انفتح الباب، ودخل الأب حاملًا ابنته، هرعت الأم أو طارت نحوه، اختطفتها من ذراعيه، أغرقت ابنتها بالقبلات، وضجت الفرحة بالمكان.

صَعدتْ بها إلى أعلى؛ حيث الحمام الرئيسي في هذا البيت المكون من طابقين، استلقت في حوض الاغتسال، تنزع عنها أمها ما التصق بجسدها من أوساخ، غير أن ما هالها هو رؤية سحجات بصدرها وكي بفخذها وقدمها، لتخرج صارخة في زوجها الذي ثار وهاج، والتقط هاتفه ليصرخ متوعدًا ومرسلًا غليظ أيمانه بأنه سينتقم منهم على ما فعلوه بابنته، والذي كان شرطه الوحيد ألا يمسها أذى، وهو لن يدخر جهدًا ولا مالًا لإرضائهم.

في الصباح ذهب إلى قسم الشرطة، وحكى تفاصيل خطف ابنته، وأوصاف الخاطفين، وأعطاهم رقم الهاتف الذي كانوا يحادثونه من خلاله، فأخبروه أنهم سوف يفعلون ما يستطيعون من أجل إيجادهم.

فمسألة إبلاغ الشرطة هذه لم تكن في نيته ولكنها جاءته انتقامًا حينما حنث الخاطفون بالوعد الذي قطعوه له بعدم إيذاء ابنته.

كان يريد تعويض ابنته عن أيام خطفها السوداء، وتحسين مزاجها الذي تبدل، والتنفيس عن نفسها المُعذبة، فكان يأخذها إلى التنزه والملاهي وكل ما كانت تطلبه ينفذه لها على الفور.

وفي صباح مشمس، كأنما خلق للتنزه، كانت تجري خلف فراشة ملونة ظهرت فجأة حينما همت بقطف وردة حمراء من الحديقة، الحديقة التي كانت بدون أسوار تطل مباشرة على الطريق العمومي، خرجت عن الرصيف تتبع الفراشة، لتتلقفها عربة نقل وتدهسها، كديناصور ضخم دهس دعسوقة مُلونة صغيرة... وعلى الفور أخذت تذكرة إلى **مدينة القمر**.

13

الصورة واضحة الآن! أرى عمي سمير يقف مدهوشًا منفزعًا، الأجواء مُكهربة، تتطاير الشرارات من عينيها، بينما قاربَ جسده على أن يهوى من أثر طعنات كلماتها الحادة، نظر إليها بملء عينيه وكأنما هي النظرة الأخيرة التي سينطفئ نورهما بعدها:

- **أتتركينني! أتريدين حقًّا الطلاق؟!**

التحدي يغلب على نظرتها القاسية وهي تحدق فيه بلا أدنى شفقة:

- **نعم، ولعل رؤيتي لك هذه تكون الأخيرة، فلا أريد أن تقع عيني عليك ثانية.**
- **ولِمَ كل هذا يا «ثريا»؟! أنا «سمير» زوجك ورفيق عمرك، لا أستحق منك كل هذه القسوة، ولا يكون مقابل حبي كل هذا الجفاء.**
- **من كان يربطني بك قد قتله أخوك أجحمه الله، فلِمَ أصبر عليك! ما كان يصبرني قد مات رحمه الله.**
- **وما كان بيننا؟! والحب الذي يربطنا؟!**

- **أنا لم أحبك أبدًا، وإنما تزوجتك بضغط من أهلي، أما الآن فلن أضيع باقي عمري عليك.**

كانت هذه القذيفة الأخيرة والتي طرحت آماله أرضًا، لتحمل حقائبها وتخرج من الباب المفتوح، وضعت حقائبها في العربة التي كانت بانتظارها، بينما يصر هاتفها على الرنين المتواصل، كتمت صوت رنينه المزعج وجلست في العربة، لتخترق العربة الشوارع الضيقة.

أعادت الاتصال ملبية إلحاح رنات هاتفها السابقة وقالت للمتلقي:

- **أنا آسفة! أعتذر يا حبيبي، فلم أستطع الرد على اتصالاتك لأنني كنت بالشقة أحضر حقائبي وملابسي وكان معي خالد أخي.**
- **لا عليك، كنت قلقًا عليك فقط، هل وافق على الطلاق؟**
- **سيوافق رغمًا عن أنفه.**
- **أنا أتعجل يوم زواجنا، ما عدت أطيق الصبر يومًا آخر بعيدًا عنك.**
- **ما بقي غير القليل.**
- **سأنتظرك اليوم في نفس المكان، لا تتأخري.**
- **لن أتأخر.**

أتعجب أحيانًا من عالم الكبار، كنت لا أفهم بعض تصرفاتهم، أما حينما أصبحت أفهمها، لا أجد بها منطقًا سليمًا، ولا تبريرًا سديدًا للكذب والخيانة، والسرقة والقتل، بعض الأوفياء والشرفاء، ليست طبيعتهم الشرف والوفاء، كما بعض المسلمين إنما ولدوا على دين توارثوه، إنما لم يُختبروا بعد، هذه الصفات نتقلد أوسمتها بالاختبار، أما بدونه فلا أحد شريف أو وفي طالما أنه لم يجتز الاختبار، أمين الخزينة لا تعتبره أمينًا على ما أؤتمن إلا بعد أن تعطيه فرصة سديدة لخيانة أمانته، طريقة ليأخذ المال مطمئنًا أنه لا محاسبة، وكررها له، إن أتمها بلا خداع، فقلده أوسمة الشرف والوفاء، كما الإسلام الموروث إذا ما أتم الاختبار تقلد درجة الإيمان، وهو أعلى أوسمة النبل والأخلاق.

«صرتُ أحادثُ نفسي كما يفعل مجاذيب الشوارع، أحادثك أنت يا «ثريا»، نعم أحادثكِ.. ارفعي عينيك نحوي بينما أتكلم... لا أصدق آخر كلماتك، بالرغم من أنها ثقبت قلبي ونفذت كرصاصة، إلا أنني ما زلت لا أصدقها، كيف أهون عليك! وكأن ما كان بيننا -ويا طول ما كان بيننا- كرسمة على رمال الشاطئ جاءت موجة ضعيفة فمحتها... يا الله! لِمَ لم أمت؟ وكأن الموت يتخير معاندًا الآمال...».

جلس على الأريكة المُتربة يحادث نفسه، وهي كانت ترتكن على مسند كرسي أمامه، مائلة، تكاد أن تسقط، دون أن يصدر منها أي تعبير أو رد أو صوت، فمنذ متى والوسائد من قطن وقماش تتكلم أو تعبر! ألبسها عباءة زوجته الآفلة، لم يخرج من بيته منذ شهر، لم تطلع عيناه على الشارع، ولم ير وجهه نور الشمس، الشهور قصيرة، والسنوات أيضًا أقصر من السابق، ما فائدة اتساع الكون من حوله، طالما جسده لا يسعه.

بجوار الوسادة الطويلة وسادة أقصر وأصغر، ارتدت قميصًا مزركشًا على صدره رسمة «لسوبرمان»، نظر إليها نظرة مطولة وأتبعها بتنهيدة حارة... أطالَ النظر، أراد أن يبكي لكنه لم يعد قادرًا على البكاء.

«**تركتني يا قلب قلبي، شُق صدري وخرجت منه، فقدتك ففقدتُ عالمي، هيثم يا ولدي هل تستمع إلي! إن كنت تسمعني، إن كنت تراني، فقل شيئًا، قل إنك لم تمت، وأن عمك لم يقتلك، قل إنني أحلم! أحادثك فرد عليَّ... فإن تعذر عليك الكلام فافعل شيئًا، حركة بسيطة، أعرف منها أنك معي وتسمعني**».

وقعت الوسادة الصغيرة على الأرض عند قدميه كأنما تقبلهما، بينما سمع صوت نحيب يتبعه كلمة «**أبي**» الصوت يخرج من الوسادة، وكأن للوسائد صوت.

حمل الوسادة الصغيرة عدّل من قميصها المزركش، أجلسها جواره، وظل يحادثها أو يحادث ابنه المتوفى الذي سمع صوته يناديه منذ قليل كما خُيل إليه.

«**لا بد أنك جائع، فأمك تركتنا ولم تطبخ اليوم، تعال معي ننزل نشتري طعامًا لنا، ونعد مائدة ملوكية**».

خرج حاملًا الوسادة ذات القميص المزركش، الجميع بالشارع ينظرون له وهو يحادث وسادته ويرد على تساؤلاتها... «**لقد خف عقل الرجل**»! «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»!

همهمات بين أصحاب الدكاكين والمحال التجارية، توقف هو ووسادته أمام مطعم سألها، أو سأله عما يريد أن يأكل، ثم أجاب هو وطلب من الرجل دجاجة مشوية وأرزًا وسلطة، قال له صاحب المطعم وعيناه تتحرك بينه وبين الوسادة ذات القميص المزركش التي كان يحادثها ويُسميها هيثم:

- **ما بك يا أستاذ «سمير»؟ اسم الله عليك!**
- **الحمد لله، اجعل الدجاجة تطيب على مهل يا «حاج خليل» إذا سمحت، هيثم يحبها أقرب إلى المحترقة.**
- **من هيثم؟!**
- **هيثم ابني! ألا تعرفه؟! ها هو. (مشيرًا إليه بالوسادة).**
- **لا إله إلا الله، ماذا ألم بأعصابك يا أستاذ «سمير»؟!**

وقف مذهولًا من ردة فعل وكلام الرجل بالمطعم، كلامه غريب لا يستوعبه عقله، بينما سمع رجل آخر يقول ضاربًا كفيه ببعضهما:

- **جُن الرجل!**

واثنان آخران ينفخان دخان الشيشة، يجلسان على المقهى الملتصق بالمطعم، قال أحدهما للآخر:

- **الحق لعقله، فقد تحمل فوق طاقته، قتل ابنه الوحيد، ومن قتله! قتله أخوه الوحيد، وتركته زوجته الذي كان مغرمًا بها لترافق شابًّا صغيرًا، كان الله في عونه.**

14

تزوغ عيناي... لا أعرف ما الذي يحدث... مشاهد تسرع وأخرى تبطئ... كتلفاز يتلاعب أحدهم بسرعة عرضه وتتابعه حتى توقفت عنده... «**عبده الشرقاوي**» (أمين الشرطة) الذي لم يرزقه الله بأطفال، حاول هو وزوجته بشتى الطرق، دار على جميع الأطباء، أخبروه أنه ما من سبب يعطل إنجاب الأطفال، حتى إنه ما وجد بابًا به بصيص أمل إلا وطرقه.

أحد عشر عامًا بين ترقب نتائج التحاليل والفحوصات والعينات وبين خيبة الأمل المستمرة، وفي النهاية ما من سبب، وأيضًا ما من نتيجة، حتى تعثرت قدمه وجلبه حظه عندي، سقطت من السماء وتلقفتني يداه، رق قلبه لي، رغبة الأبوة المفقودة أو مأساوية حياتي الموجودة، لا أعلم! أو كليهما.

جلسَ متربعًا على كنبة أعلى بقليل عن مثيلتها التي تقبع في الزاوية أمامه، بوجهه الطويل الضارب للسواد، وبوزه الممتد أمامه كأنما هو في حالة شفط دائمة، وعينيه المظلمتين الغائرتين، لولا بياضهما ما اتضحا، نظر إليها حانقًا، بينما لسانه يكيل لها:

- **أيتها المتكاسلة ذات الوجه العكر! لا صبحك الله ولا مساك، ألم أطلب منك قهوة ونارًا للشيشة؟!**

لاح الاستياء في وجهها، وقالت بلهجة ملؤها قلة الحيلة والتصبر:

- **وماذا عليَّ أن أفعل! لست أقوى من النار!**

دلقت الكلمات على مسامعه، وولت إلى الداخل، هربًا من أن تستمع إلى رده الذي غالبًا ما يعتصر قلبها عصرًا، بينما هو حدجها بنظرة لها شزرًا، وتمتم ساخطًا:

- **الأرض البور لا يأتي منها خير، قبحك الله!**

طالما كان مقتنعًا أنها تتحمل نقمة عدم الإنجاب، وأن الرجل -يقصد ابنه «عبده الشرقاوي»- ليس عليه وزر ولا عيب في ذلك.. فهو رجل لا يعيبه غير جيبه.

وَضعتِ الفحم المُستعر، وصبت له القهوة في كوب زجاجي، وأخذت تمسح بكمها دمعات تتراقص مثابرة عن السقوط، حملت الصينية وخرجت إليه لتضع الفحم المتوهج على حَجر الشيشة، رمقها بازدراء، والتقم فمه مَبسم الشيشة وترك بوزه على سجيته في شفط الدخان كمكنسة كهربائية، أدارت له ظهرها ووجهها لا يقل توهجًا عن قطع الفحم التي أضاءت حَجر الشيشة، وتناول كوب القهوة وأدناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته، وراح يرشف منه رشفات متتابعات حتى أتى عليه، ثم تمتم قائلًا:

- **ما أحلى قهوتها بنت الذين آمنوا! (وضحك بسخرية).**

بعد ساعة خرجت عليه مرة أخرى بغير الوجه الذي غادرت به، وقالت في نفسها «**لنرى ما يُسمعني من سليط لسانه هذا العجوز الخرف**» ثم قالت له:

- **أأحضر لك الغداء يا حاج؟**
- **وما غداء اليوم؟**
- **قرنبيط مقلي وخبز وبطاطس وسلطة خضراء.**

قال والتذمر زاد طول بوزه أكثر:

- **قبحك الله! أما خلق الله غير البطاطس والقرنبيط، ما زال طعمهما لم يترك فمي.**

قالت مخففة من لهجتها تسأل رفق الرجل دائم الغضب:

- **والله إن أحوالنا المالية تضيق يومًا بعد يوم، ولعل الله يفرجها من عنده، ويأتي رزق مكتنز ليس على البال.**

وهي تقول في نفسها «**لعلك تموت ونرتاح، ونتمتع بما تخبئه أيها العجوز ذو البوز الممدود**».

كان «الشرقاوي» شُرطيًّا يحمل شارة على عضده، وكان شحيحًا بخيلًا يكتنز المال ويحبه أكثر حتى من زوجته التي ماتت كمدًا وغمًّا، لا يناطح حبه للمال إلا حبه لابنه الوحيد «عبده»، حتى

هذا لا تكاد تُجزم أيهما أحب إليه من غيره، ولكن لا ينجلي هذا إلا عند الضرورات التي تلزمه بالتخير بين مال يُصرف أو صحة ابنه، فكان شديد المرض فقط هو الاختبار وهو الإجابة عن السؤال المحير.

اكتنزَ من المال الكثير طيلة حياته، وتحصل على مكافأة مُجزية من الشرطة عند بلوغه سن التقاعد، ولكنه لا يخبر أحدًا بمكان أمواله وأين وضعها، كأنه من المُخلدين أو أنها ستدفن مع موميائه للحياة الأخرى، حتى حينما تجرأ «عبده» وسأله؛ نهره ووبخه واتهمه بكل ما هو عاق، فما عاد يسأله عن الأمر أبدًا، وإن كان بداخله امتعاض وحنق لا ترتضي نفسه المُجاهرة به، برغم استياء زوجته وحثها له بأن يفعل شيئًا.

إلا أن الأمل يراوده حينًا بعد حين بأن أباه حتمًا سيدلي له بمكان أمواله، في أي مصرف أو صندوق أو حتى بالبريد، فمن الضروري أن يكون في حياة الإنسان ما تنعقد حوله آماله، حتى تكون الحياة ذات طعم، فوطَّنَ نفسه على الرضا بحياته كما هي، حتى يحين الوقت، والوقت لا بد وأن يحين.

في المساء، حضر «عبده» إلى بيته، وكانت زوجته تعد الغداء، سألها عن أبيه الحاج «الشرقاوي» الذي لم يحج ولم ير الكعبة إلا على التلفاز، ولكن سِنه الذي تخطى السبعين بقليل أكسبه اللقب، كان شحيحًا فظًّا لا يتفوه لسانه إلا بكل مكروه، ولكن وما العمل؟! لا يختار المرء أبويه، كثيرًا ما تعجب الناس كيف يأتي «عبده» من

«الشرقاوي»، وكيف يُنجب «الشرقاوي» رجلًا دمث الخُلق مثل «عبده» الرجل المحترم، كان كل الناس ينادونه بالرجل المحترم، وكان يعز عليه أنها لا تكتمل حتى «وابن المحترم» أبدًا.

سألها عن أبيه، فأخبرته بأنه يتمتع بقيلولته بعد الغداء، ولم تنس عيناها أن تتنزل منهما دمعات، حتى يسألها:

- **ما بك؟**
- **لا شيء.**
- **أوبخك أبي كعادته؟**
- **أصبحت أعتاد توبيخه وفظاظته، وأسمع كلماته من أذن لتخرج من الأخرى بلا تفكر.**
- **إذًا ما يبكيك؟!**
- **تعبت يا «عبده»، أستشعر نظرات الناس في الشوارع، كأنهم يتهامسون عليَّ، (العاقر.. الأرض البور) لا أعرف لِمَ لا يُسْتَجاب لدعواتي! بالرغم من تأكيدات الأطباء بأنه ما من عيب فينا، فأين العيب! أين العيب يا عبده؟!**
- **يا عزيزة العين، قضاء الله، وكل رزق له أوان مُقدر عنده سبحانه وتعالى، فلا تعرفين أين يُخبأ الخير، ولنا في أخبار الأنبياء والصالحين ذكرى، وأيضًا هناك الكثير مما منعهم الله نعمة الإنجاب ثم آتاهم من فضله، بعدما تذوقوا مرارات اليأس، فأصبح عندهم**

الآن البنين والبنات، و«محمود الهمروش» زميلي ليس ببعيد، وأنت تعلمين قصته.

ابتسمتْ له دونما اقتناع، وقامت فقبلتْ جبينه، بعدما مدحته وأثنت على خصاله الطيبة ومحمود أخلاقه، ثم قالت له وهي مبتعدة عند باب المطبخ:

- **وما حال الصغيرة دنيا؟ ألم يقل لك الأطباء متى تفيق من غيبوبتها؟**
- **لا جديد! ولكني سأذهب لزيارتها اليوم.**

قالت بنبرات أسيفة، بينما ضجيج ملعقة الغرف يرسل رسائله لـ «عبده» أن يهم بتغيير ملابسه واستبدالها بجلباب البيت:

- **يا الله، أكثر من ثلاثة عشر يومًا وهذه المسكينة في الغيبوبة بعد جراحة بتر ساقها! وكأنها لن تنجو.**

ثم تابعت تقول في نفسها «**اللهم يا من تعيد المريض إلى صحته، وتستجيب دعاء البائس، اللهمّ إنَّا نسألك بكل اسمٍ لك أن تشفيها. أسألك اللهم أن تشفيها، لا ضر إلا ضرك، ولا نفع إلا نفعك، ولا ابتلاء إلا ابتلاؤك، ولا معافاة إلا معافاتك، أنت الحي القيوم**».

سرعان ما خرجت تحمل صينية الطعام، وخرج هو أيضًا، ليكملا الحديث الذي لم يتم على طاولة الطعام، وسألته عن تكاليف المستشفى، فأجابها بأنه تحمل جزءًا والضابط معاون القسم دفع له جزءًا آخر وأهل الخير كثر لا ينسونها، فقالت له تطلب منه أن يأخذها معه بعد الغداء لزيارة هذه المسكينة الوحيدة في غيبوبتها بالمستشفى.

قام من غدائه، وطلب منها أن تعد القهوة له حتى يدخل ليتفقد أباه ويجالسه قليلًا قبل أن يخرجا للمستشفى، فقامت تحمل صينية الأكل المنتهية طعامها.

طرق الباب ثم فتحه ودلف إلى غرفة أبيه، الجدران لُونت بلون سماوي كان جميلًا وقت دهانه، دولاب قديم يستند إلى الجدار، إحدى درفتيه مفتوحة والأخرى منغلقة بحرص، راقد في فراشه لا شخير له على عكس عادته، اقترب من فراشه، يبدو جسده واهنًا، ووجهه مُسودًّا تشوبه الزرقة، «**أبي، أما زلت نائمًا**»؟ الريبة تتسلل إلى داخله، وضع كفه يتحسس نبضه.. ما من نبض.. حاول أن يوقظه، لا يستيقظ، ولا يستجيب، صرخ على زوجته: «**لقد مات أبي**»، مات الحاج «شرقاوي» الذي لم يحج يومًا.

حزن على أبيه، وحزنت زوجته أيضًا، ولكن ليس بقدر حزنه، ضَخمتْ حزنها التي تُبديه حتى يتواكب مع الموقف، مرت أيام تخطت الأسبوع، وتناسى الجميع ذكرى «الشرقاوي»، حتى غرفته نسيته ونسيت ذكراه عندما نظفتها وأزالت منها متعلقاته، وفراشه نسي أنه رقد فيه يومًا من الأيام.

في المستشفى، منابت الجدران الرخامية تلمع، أبواب غُلفت بداياتها من الأرض بحافظات معدنية، أسمع ذفَّ حذائه عند الباب في أول الممر، يقترب، لم يكن وحده، جلبة صوت الأحذية تنم عن رفقة معه، وقف عند باب غرفتي سأل الممرضة المكتنزة عن

الحالة، أخبرته أنه لا جديد، ما زالت في غيبوبتها، استأذنها بالدخول برفقة زوجته، نظرت إلى السقف برهة كأنما تفكر، وعادت لتأذن له: «**ولكن ليس أكثر من عشر دقائق فقط حتى لا تؤذيني إن مر المدير**».

وقف هو وزوجته بجوار سريري، أشعر بدفء يديه على جبيني، أسمع دقات قلبيهما التي تنتحب، أرى دمعات محصورة بعينيه، بينما أذعنت لها عينا زوجته، وصارت تنزلق بخفة على خديها المحمرتين، تمتمت الزوجة بكل صدق أن يقويني الله ويأخذ بيدي وينجيني.

لاحظا مرور الممرضة أمامهما بدون أن تنبس بكلمة، ولكنهما فهما الرسالة، وخرجا من الغرفة، ولم ينس «عبده» أن كرمش لها خمسين جنيهًا ورقة واحدة صحيحة في يدها وهو يوصيها أن تعتني بي، وهي ترد أنها لا تحتاج إلى توصية فكم ينفطر قلبها كلما رأت حالتي... ويزيد من حزنها مظهر ساقي المبتورة.

هز رأسه ومضت هي تدس الخمسين جنيهًا في جيبها، بينما هو أخذ بيد زوجته وألقيا نظرة أخيرة على جسدي الراقد ومضيا يمشيان.

ذفَّ حذائه المُدبر أسمعه جيدًا، لكنه ما عاد متعجلًا كما كان عند مجيئه، أصبحا على درجات السلم المؤدي إلى الطريق العام، طرقات حذاء نسائي مُسرع خلفهما، وصوت الممرضة ينادي:

«**يا أستاذ عبده**».. «**يا أستاذ عبده**»، تنبها للصوت، فجمُدا مكانهما، تساءل في نفسه: «**أماتت المسكينة؟ أستر يا رب**»! ولكن تلاشت هذه الفكرة حينما تبين ثغر الممرضة المستبشر الضحوك:

- **أفاقت، أفاقت! أفاقت من غيبوبتها.**

قالتها بينما تستجمع شتات أنفاسها، وتبطئ سريع خطواتها، حتى وقفت أمامهما تستأنف حديثها للوجوه المستفهمة التي تريد أن تتأكد:

- **من التي أفاقت؟!**

لم يكن سؤالًا، بقدر ما هو توكيد لريبة في قلبه أراد محوها، فقالت الممرضة:

- **دنيا ...أفاقت وتطلبك بالاسم.**

أسرعت الستة سيقان تتقدمهما ساقا «عبده»، بينما تستكمل الممرضة حديثها وهي تبتلع أنفاسها ابتلاعًا:

- **يا قرة عيني أفاقت فجأة! كأنها كانت بكابوس طويل، وقالت لي الحقي عم «عبده» قبل أن يغادر! لا إله إلا الله، كأنما كانت تعرف بوجودك عندها.**

الباب مفتوح، كنت جالسة أنظر إلى ساقي المبتورة، والتي كانت موجودة أطأ بها الأرض في مدينة القمر، كنت أجول في حدائقها وملاعبها! كيف فجأة أجد نفسي على ذات السرير المعدني مبتورة الساق؟! في نفس الغرفة الضيقة الصغيرة! كيف؟ والبيت.. والمدرسة.. وأمي.. وجدتي.. لا أعرف الحقيقة من التخيل، أنا مشوشة.

منذ قليل كنت في بيت «عبده»، في غرفة جدرانها لونت بلون سماوي بُهتت بفعل الزمن، «الشرقاوي» يقف قبالة الدولاب يفتحه، يرفع ثنايا الملابس والمفارش المتراصة متباينة الألوان، من تحتها فُرشت أوراق جرائد كمفرش، رفعَ أوراق الجرائد، وأخرجها

خارج الدولاب، ثم رفعَ أرضية الدولاب الخشبية بفك مسماريها، فظهرتِ الأرض من تحتها، نهضَ وجلبَ عتلة حديدية من تحت سريره وعاد حيثما كان، أقحم العتلة ببلاطات الأرضية لترتفع قليلًا، فأخرج ثلاثًا منها ونحاها جانبًا، ثم مد يديه في حفرة مستوية ظهرت من تحت البلاطات المنزوعة، أخرج علبة خشبية كبيرة وعميقة، تراصت به آلاف الجنيهات الذهبية وعدة سبائك ذهبية.

هذا هو كنزه، كان يحب الذهب، فاشترى بجميع أمواله ذهبًا على مدار ثلاثين عامًا يشتري ويكتنز، حتى أرضه التي ورثها عن أبيه ومكافأة تقاعده وادخاراته حولها جميعها إلى ذهب.

تحسسَ ملمس الذهب بأصابعه، وسمع رناته الخلابة، شهوة ما بعدها شهوة، فرحة ما بعدها فرحة، ثم أعاد الوضع كما كان، ثبت البلاطات في مكانها، وأعاد ربط أرضية الدولاب الخشبية بذات المسمارين، ولم ينس أن يعيد الملابس والمفارش كما كانت بالضبط، ثم وقف ونظر إلى الدولاب وهو يقفله بنظرة ملؤها النشوة، ثم شهق ببطء يستجمع أنفه الهواء من الغرفة، وارتسمت علي ملامحه ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن لم تغير من وجهه المُسود، ثم رقد على الفراش مُمددًا... تغرب الابتسامة من وجهه ببطء... بينما يُخرِجُ زفيرًا متبقيًا من شهيق طويل قد أتمه منذ ثوانٍ، الزفير ينتهي ولا يتبعه شهيق، غاب الوجه الذي رقد عليه، فقد مات «الشرقاوي»، مات «الحاج الشرقاوي» الذي لم يحج يومًا.

أخطأني الموت فلا تتملل
حتمًا هو قادم فهو لا ينسى
يا ظلي على الجدار... أتسمعني! أحادثك
اعلم أنني إن مت سوف أتعفن ثم أتحلل
حينها ستخبو أنت أيضًا
ولن يذكر أحد أنك كنت يومًا على الجدار تتظلل
يا ظلي على الجدار الذي يتململ

من أغاني الطور الأول

كاريزما
للنشر والتوزيع